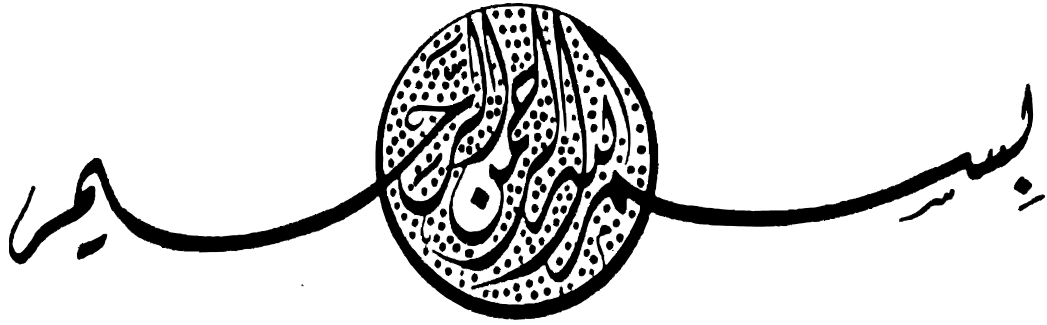


دراسة موضوعية فنية في أدب الرقائيق مرويات ابن أبي الدنيا إنصافاً

رسالة تقدم بها
أحمد عبد الرزاق خليل

إلى مجلس كلية الآداب - جامعة البصرة
وهي جزء من متطلبات درجة (ماجستير)
في اللغة العربية وآدابها

بإشراف
الأستاذ الدكتور مصطفى عبد اللطيف جياووك



﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ
لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ اللَّهُ نَزَّلَ
أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ
هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهٍ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿

((الزمر: 22-23))

الإهداء

إلى من أوقفنا حياتهما لرعايتي...

والديَّ الكريمين.

إلى من قاسمتني رحلة الحياة بصفوها وكدرها

وخففت عني أعباءها...

زوجتي.

إلى ريجانتي في الدنيا...

ابنتي.

أهدي هذا الجهد المتواضع.

أبوها محمد
أمازغ



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
أ	المقدمة.
1	التمهيد.
2	مدخل لأدب الرقائق.
4	أصل تسمية الرقائق.
6-5	تعريف الرقائق في اللغة والاصطلاح.
7	ظاهرة الضعف في أحاديث الرقائق.
8	موضوعات الرقائق في السنة النبوية.
10	تطور أدب الرقائق في القرن الثالث الهجري
12	نبذة من حياة ابن أبي الدنيا
12	أسمه ونسبه ومولده ونشأته.
14	شيوخه وتلامذته.
15	مكانته العلمية وأخباره.
15	ثناء العلماء عليه.
16	مؤلفاته.
17	وفاته.
19	الفصل الأول: موضوعات الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا.
20	مدخل.
22	المبحث الأول: العقائد.

فهرس الموضوعات

23	ذكر الموت.
28	قيام الساعة وبعض علاماتها.
32	الثواب.
34	العقاب.
38	الجنة والنار.
39	الجنة.
42	النار.
46	المبحث الثاني: الأخلاق.
47	الحياء.
50	الصدق.
53	الحلم والصفح.
56	السخاء والكرم.
59	الأمانة.
63	المبحث الثالث: العلاقات والأحوال الاجتماعية.
64	حقوق الزوجة على زوجها.
68	حقوق الزوج على الزوجة.
72	حقوق الأبناء على الآباء.
78	حقوق الآباء على الأبناء.
81	الفصل الثاني: الأنواع الفنية للأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا.
82	مدخل.
83	المبحث الأول:

فهرس الموضوعات

83	التوقيعات الموجزة والحكمة.
87	الأحاديث.
91	الوصايا.
96	الدعاء والمناجاة.
101	المبحث الثاني:
101	الخطب.
105	الرسائل.
108	المحاورات.
112	الرؤى.
115	الفصل الثالث: الدراسة الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا.
116	المبحث الأول: التصوير البياني وجمالياته.
133	المبحث الثاني: فن الوصف.
144	المبحث الثالث: فن القصة.
156	الخاتمة.
158	المصادر والمراجع.

المقدمة



المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تنزل الرحمات، وبتوفيقه تتحقق الغايات. الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ. الذي بعث لتزكية النفوس وتهذيبها مما علق بها من ركام الجاهلية المظلمة، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين رضوان الله عليهم أجمعين.

وبعد..

عندما طغت الدنيا على كثير من الناس وأعمتهم عن رؤية الآخرة والعمل لها، قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم، وأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة. أحب ابن أبي الدنيا أن يرقق تلك القلوب القاسية، والنفوس البالية، فحاول جاهداً أن يجمع ويتذكر ما سمعه من شيوخه، لصد هذه الهجمة العاتية، التي إذا أتت على أحد دمرته. فصنف المصنفات، وأودع فيها كل ما يخص موضوعها، ليزكرنا بحال أسلافنا العظماء، وما كانوا عليه من ورع وزهد وصلاح.

إن إحياء تراث الحافظ المصلح ابن أبي الدنيا، يمثل إحياءاً لتراث الأمة الإسلامية الزاخر، فقد احتل الحافظ ابن أبي الدنيا مكانة مرموقة بين علماء القرن الثالث الهجري. وبرزت شخصيته في نفائس ما قدمه من مصنفات في الرقائق والأخلاق، فهو محدث، حافظ، ومؤرخ ثقة، وإمام من أئمة الزهد والورع، وأديب متفنن، ومؤدب قدير، أدب أولاد الخلفاء. فالعلماء والزهاد بعده عيال عليه في الفنون التي جمعها. قال الزركلي في كتابه الأعلام: وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام، وما يلائم طبائع الناس، إن شاء أضحك جليسه، وإن شاء أبكاه.

ولكن من المؤسف أن شخصية الحافظ ابن أبي الدنيا لم تنل مجهولة عند كثير من المعنيين، ولم تحظ آثاره بدراسة سابقة، رغم أنه انفرد بميزتين. الأولى: أنه قعد الأسس لمدرسة الرقائق والزهد والأخلاق بما يزيد على مائة مصنف، معتمداً في ذلك على القرآن



المقدمة

الكريم والسنة النبوية المطهرة، و فقه الصحابة والتابعين. والثانية: أنه دون الكثير من الكتب المتعلقة بحوادث القرنين الأول والثاني من الهجرة، فكانت كتبه من أقدم ما دون في ذلك.

ونظراً لما تقدم مع ما أشار به عليّ أستاذي المشرف الدكتور مصطفى عبد اللطيف، كان اختياري موضوع الرسالة ((دراسة موضوعية فنية في أدب الرقائق مرويّات ابن أبي الدنيا أمّوذجاً)).

وهذا البحث يتألف من ثلاثة فصول يتقدمها تمهيد، ويعقبها خاتمة. تناولنا في التمهيد فقرتين. الأولى: مدخل لأدب الرقائق، تحدث فيه عن أصل تسمية الرقائق في اللغة واصطلاح، وظاهرة الضعف في أحاديث الرقائق، و موضوعات الرقائق في السنة النبوية، وتطور أدب الرقائق في القرن الثالث الهجري. وتناولت في الفقرة الثانية: نبذة من حياة ابن أبي الدنيا، تحدثت فيها عن أسمه ونسبه ومولده ونشأته وشيوخه وتلامذته، ومكانه العلمية ، وثناء العلماء عليه، ومؤلفاته، وأخيراً وفاته.

وكان الفصل الأول مخصصاً لموضوعات الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا متضمنة مدخلاً وثلاثة مباحث، درست في المدخل طبيعة الموضوعات التي عالجها ابن أبي الدنيا، و درست في المبحث الأول الجانب العقائدي، وتضمن ذكر الموتى وقيام الساعة، والثواب والعقاب، والجنة والنار. أما المبحث الثاني فكان مخصصاً للجانب الأخلاقي، وتضمن الحياء والصدق والحلم والصفح، والسخاء والكرم والأمانة. أما المبحث الثالث فتناولت فيه الجانب الاجتماعي، وتضمن الأحوال والعلاقات الاجتماعية، من حقوق الزوجة على زوجها، وحقوق الزوج على الزوجة، وحقوق الأبناء على الآباء، وحقوق الآباء على الأبناء.

أما الفصل الثاني، فقد درست فيه الألوان الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا. وتضمن مبحثين، المبحث الأول تناولت فيه التوقعات الموجزة والحكمة



المقدمة

والأحاديث والوصايا والدعاء والمناجاة. أما المبحث الثاني، فتناولت فيه الخطب والرسائل، والمحاورات، والرؤى.

وخصصت الفصل الثالث للدراسة الفنية في مرويات ابن أبي الدنيا. وتضمن ثلاثة مباحث. المبحث الأول تناولت فيه التصوير البياني وجمالياته، وأما المبحث الثاني فتناولت فيه فن الوصف، وأما المبحث الثالث فتناولت فيه فن القصة. وقد ختمت البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها في أثناء الدراسة.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى أستاذي الدكتور مصطفى عبد اللطيف، الذي أشرف على هذا البحث وذل كل العقبات التي اعترضتني منذ أول لحظة لاختيار هذا الموضوع. ولم يخل عليّ بوقته وجهده وكتبه، والنصيحة والتوجيه، التي أعانتني على إتمام هذه الدراسة. كما أشكر كل الذين أعانوني على إنجاز هذا البحث وأخص بالذكر منهم الدكتور الشيخ عبد الكريم ناصر، فقد كان لإشاراته وتوجيهاته الفضل الكبير في إتمام هذا البحث، فله منا فائق الشكر والتقدير.

وأثقدم بالشكر والامتنان أيضاً إلى الموظفين والموظفات في مكتبة كلية الآداب والمكتبة المركزية في البصرة.

وأخيراً أرجوا من الله أن أكون قد وفقت بعلمي هذا، فما كان صواباً فالفضل لله وحده، وما كان غير ذلك فهو مني حيث أن الكمال لله وحده.

الباحث

التمهيد

ويتضمن ما يلي:

✧ مدخل لأدب الرقائق .

✧ نبذة من حياة ابن أبي الدنيا .

✽ مدخل لأدب الرقائق:

لقد كان فضل السبق للدين الإسلامي في مجال التربية و السلوك واضحاً، وأثره بارزاً في المجتمع، في كل العصور، ولا سيما في القرون الثلاثة الأولى لصدر الإسلام.

لقد جاء منهج التربية في الإسلام بهدف الصياغة الجديدة للنفوس، فرقق القلوب الغليظة، وهذب النفوس المريضة، وصاغ الفرد صياغة إنسانية ربانية، حيث انتشله من براثن الجاهلية العاتية المحكمة لنزعاتها القبلية والعصبية، إلى العقيدة السليمة والقيم السديدة.

فقد قوم المنهج التربوي الإسلامي كثيراً من التقاليد، وأصلح المفاصد وأقام العدل والمساواة، ونبذ المظاهر السيئة، ومن تلك المظاهر ظلم الأسياد على العبيد، والكبرياء والاستعلاء من الأغنياء على الفقراء، واحتقار المرأة أبشع الاحتقار، وغيرها من مظاهر الجاهلية الظالمة التي تجعل القلوب أشد قسوة من الحجارة الصماء.

لذلك كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في أخذ هذا الدور الناجع في صقل النفوس القاسية وتهذيبها، لذا فـ "القرآن الكريم معجزة الإسلام، بلغ من تأثيره أن أسلم عرب العصر الجاهلي، إقراراً وإعجاباً ببلاغته. ثم صار المصدر الأساسي في ثقافة أتباعه المسلمين" (1).

وأبرز ابن خلدون في مقدمته أثر القرآن الكريم في نفوس العرب، فقال "وكلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العلية من الكلام في القرآن والحديث، الذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما، لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم.

فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة فكان كلامهم في نظمهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك" (1).

ولعلنا نعرج بمثالين على من أثر فيه الأسلوب القرآني المعجز فآمن وصدق، وحسن إسلامه، ومن أثر فيه ولكن صد وجحد واستكبر، فالأول يمثل القلب الحي اليقظ، وشفافية

(1) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، مجاهد مصطفى بجنت: 139.

(1) المقدمة، ابن خلدون: 1 / 580.

النفس الرقيقة، كما في قصة إسلام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عند ما قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام.⁽²⁾ والثاني يمثل القلب الميت الغافل والنفس الغليظة القاسية، ويظهر هذا في قصة صدود وإعراض الوليد ابن المغيرة بعد ما سمع القرآن وهزه هزاً عنيفاً، فكأنما رق له قلبه. ثم قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق. (3)

وهكذا نجد أن للكلمة القرآنية سراً في التأثير، حتى أنها لتأخذ بمجامع القلوب، فقد جاء التعبير القرآني مادحاً عباده المؤمنين، ذوي القلوب الخاشعة، قال تعالى "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ".⁽⁴⁾

قال تعالى "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ".⁽⁵⁾

أما السنة النبوية المطهرة، فقد تضمنت صحوة للقلب وإحياء للنفس، بتعبير يغاير النص القرآني، وذلك بذكر مواقف في الجنة والنار مثلاً، وأحوال القيامة من الموت والحشر والحساب والعقاب وغيرها من الموضوعات التي تهز النفس، وتقذف في روع الإنسان الهلع والخوف من ما يحدث للقلوب رقة وللنفوس خشية وكلا النوعين من النص القرآني والنبوي، وما دار حولهما من أقوال السلف، يصب في نهر واحد يسمى الرقائق.

(2) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: 1/ 372. (قصة إسلام عمر).

(3) ينظر: المصدر نفسه: 1/ 288. (قصة أعراض الوليد بن المغيرة).

(4) سورة الحديد: الآية 16.

(5) سورة الزمر: الآية 23.

• أصل تسمية الرقائق:

قبل الخوض في غمار التعريف لابد أن أشير إلى أن مصطلح الرقة والقسوة من المصطلحات الواردة في المعجم العربي الإسلامي. فقد جاء لفض القسوة في القرآن الكريم في ستة مواضع، كلها جاءت في معرض الذم للقلوب القاسية.

قال تعالى عن اليهود " ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً " (1) وقال سبحانه " فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً " (2) وقال تعالى " فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ " (3).

وقال عز وجل " وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (4). وقال سبحانه " لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ " (5) ثم توعدهم بالويل فقال سبحانه " فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ " (6).

فالقسوة: الصلابة والشدة و اليبس، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة و الإذعان لآيات الله تعالى. قال المبرد: قسا القلب إذا صلب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها. وقلب قاسٍ أي صلب ليرق ولا يلين. (7)

وأما ما جاء في السنة النبوية المطهرة في لفظ الرقة والقسوة، فمنها ما هو مدح لأصحاب القلوب الرقيقة، ومنها ما هو ذم لأصحاب القلوب القاسية، فالذي جاء مدحاً لصحاب القلوب الرقيقة حديث عائشة رضي الله عنها " إن أبا بكر رجل رقيق " (8) أي ضعيفا هين

(1) سورة البقرة: الآية 74.

(2) سورة المائدة: الآية 13.

(3) سورة الحديد: الآية 16.

(4) سورة الأنعام: الآية 43.

(5) سورة الحج: الآية 53.

(6) سورة الزمر: الآية 22.

(7) ينظر: تفسير القرطبي: 500/1، 216/15.

(8) رواه البخاري: 1/240.

لين. وحديث أهل اليمن " أهل اليمن أرق قلوباً ". (1) أي ألين وأقبل للموعظة، والمقصود بالركة ضد القسوة و الشدة. (2) ومنها حديث " استوصوا بالمعزى، فإنه مال رقيق ". (3) والمراد أنه لا يقوى على الجفاء وشدة البرد. (4)

وما جاء ذماً للقلوب القاسية حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال " لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرت الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي ". (5) ومنها حديث " أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا ". (6) فمن هذه الآيات والأحاديث يتبين لنا، أن مصطلح الرقائق بمعناه الإسلامي مأخوذ من الرقة وهي ضد الغلظة والشدة، و الرقائق جمع مفردة رقيقة على وزن (فعيلة) بمعنى فاعلة. وهي كل ما رقق القلب و يؤثر فيه سوا كانت آية قرآنية، أو كونية، أو موعظة نبوية، أو خطبة إيمانية، أو رؤية مبتلى، وغير ذلك مما يجلب الخشية والخوف من الله تعالى، حتى يظهر أثر ذلك على السلوك والجوارح.

• تعريف الرقائق:

الرقائق في اللغة:

جاء في لسان العرب أن " الرقيق: نقيض الغليظ والثخين، والرقة: ضد الغلظ، رقيق رقة فهو رقيق ورقاق وأرقه ورققه، والأنثى رقيقة ورقاقة ". (7) ويطلق الرقيق على الناقة التي وهنت وضعفت، كما يطلق على الرجل يقال: رجل رقيق كما في حديث عائشة رضي الله عنها " أن أبا بكر رجل رقيق " أي ضعيف. (8) والرقة " مصدر رقيق وهو عام في كل شيء،

(1) رواه الروياني في مسنده: 1 / 174.

(2) ينظر: النهاية في غريب الحديث و الأثر، ابن الأثير: 2 / 252.

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير: 11 / 109.

(4) ينظر: النهاية في غريب الحديث و الأثر: 2 / 252.

(5) رواه الترمذي: 4 / 607.

(6) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 10 / 226.

(7) لسان العرب: مادة (رقق) : 1 / 121.

(8) ينظر المصدر نفسه: 1 / 121.

يقال فلان رقيق الدين " (1) أي ضعيفه. وجمعه رقاق ورقائق. وترقيق الكلام تحسينه. (2) " والرقعة بالكسر الرحمة، رقت له أرق و الاستحياء ". (3) فعلى هذه المعاني يستنتج أن الرقائق مأخوذ من الرقيق، وهو مأخوذ من الرقة وهي ضد الغلظة، فالرقائق جمع مفردة رقيق على وزن (فعليل).

الرقائق في الاصطلاح:

هي المواعظ (4) التي تحدث في القلب الرقة والرحمة. قال ابن حجر: وسميت هذه الأحاديث بذلك لأن في كل منها ما يحدث في القلب رقة. (5) وقال الراغب الأصفهاني "متى كانت الرقة في جسم فضدها الصفاقة، كثوب صفيق وثوب رقيق، ومتى كانت في نفس فضدها القسوة، كرقيق القلب وقاسيه ". (6)

وأهمية الرقائق تتجلى في ربط المخلوق بربه، وتذكيره بالآخرة، وجعله يشمر عن ساعد الجدة للعبادة والعمل معاً. وكما ذكرنا في أصل التسمية: أن الرقيقة هي ما ترقق القلب وتؤثر فيه سواء أكانت آية قرآنية أو كونية، أو مواعظ نبوية، أو كلمات خطائية، وغيرها مما يحدث في القلب الخوف والخشية من الله عز وجل، ويظهر أثر ذلك على الجوارح منة قشعريرة الجلد ودمع العين، قال تعالى " اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ مُتَشَابِهًا مَثَابِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ". (7) وقد يراد بالرقائق ترقيق الكلام وتحسينه، كما ورد ذلك في المعنى اللغوي، يقول يحيى بن معاذ "أحسن شيء كلام رقيق، يستخرج من بحر عميق، على لسان رجل رقيق ". (8) وهذا النص فيه دلالة على أن معنى (الكلام الرقيق) المستحسن الجميل.

(1) المصدر نفسه: 121/1.

(2) الصحاح، الجوهري: 57/1.

(3) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: 237/3.

(4) المواعظ: مأخوذة من الوعظ، وهي التذكير بالخير في ما يرق له القلب. ينظر: التعريفات للجرجاني: 176.

(5) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: 276/11.

(6) مفردات ألفاظ القرآن: 361.

(7) سورة الزمر آية 23.

(8) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: 209/14.

• ظاهرة الضعف في أحاديث الرقائق:

لما كانت أحاديث الرقائق تتحدث في أغلبها عن المواعظ، و الترغيب والترهيب، وعن فضائل الأعمال، ولم تتحدث عن أمور العقائد، والحلال والحرام، والأحكام وغيرها، تساهل العلماء في روايتها وتسامحوا في رجالها. وذلك لأن الحديث الضعيف يؤخذ به في الفضائل والثواب والعقاب. وسأقف على ما قاله العلماء في ذلك. (1)

قال عبد الرحمن بن مهدي " إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام، والأحكام، شددنا في الأسانيد، وانتقدنا في الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب، سهلنا في الأسانيد، وتسامحنا في الرجال ". (2) وقال الإمام النووي في الأذكار " قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم، يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب، بالحديث الضعيف، ما لم يكن موضوعاً، وأما الأحكام، كالحلال والحرام والبيع والنكاح والطلاق وغير ذلك، فلا يعمل فيها إلا الصحيح والحسن، إلا أن يكون في احتياط في شيء من ذلك ". (3)

وفيما يخص الحافظ ابن أبي الدنيا، فإن ظاهرة الضعف في مروياته، تعود في الذين يروي عنهم (4) لا في شخصيته لكونه راوياً حافظاً، وهذا لا يعني أنه مقل من رواية الصحيح، بل

(1) العمل بالحديث الضعيف ذهب فيه العلماء على ثلاثة أقوال.

القول الأول: لا يعمل بالحديث الضعيف مطلقاً، سواء كان في الأحكام الشرعية أم في الترغيب والترهيب، و فضائل الأعمال، نقل هذا ابن سيد الناس عن يحيى بن معين.

القول الثاني: لا مانع من العمل بالحديث الضعيف مطلقاً، إذا لم يكن في الباب غيره، ونسب هذا القول إلى الإمام أحمد بن حنبل وأبي داود، ونقل عن الإمام أحمد قوله: ضعيف الحديث عندي أحب من رأي الرجال.

القول الثالث: الحديث يعمل به في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب، والمواعظ، ولا يعمل به في العقائد، و لا في الأحكام الشرعية وفي الحلال والحرام. ينظر: تيسير مصطلح الحديث، د. محمود الطحان: 65. وينظر: علوم الحديث ومصطلحه، د. صبحي الصالح: 210.

(2) ينظر: فتح المغيب بشرح ألفية الحديث، السخاوي: 142/1.

(3) الأذكار: 7.

(4) الضعفاء الذين يروي عنهم: محمد بن إسحاق البلخي، ومحمد بن إسحاق الضبي، فالأول قال عنه صالح بن محمد جزرة، وقد سؤل عن ابن أبي الدنيا " صدوق وكان يختلف معنا، إلا أنه كان يسمع من إنسان يقال محمد بن إسحاق البلخي، وكان يضع للكلام إسناداً، وكان كذباً يروي أحاديث من ذات نفسه مناكير " ينظر: تاريخ بغداد: 10 / 90. والثاني تركه ابن أبي حاتم، ينظر: ميزان الاعتدال: 64 / 6.

إننا نجد في مروياته كثيراً من الصحة، وقد رويت في كتب الحديث، كالصحيحين والسنن وكتب الزهد والرقائق وغيرها.

ولكن المصنف ابن أبي الدنيا، عندما يروي هذه المرويات الضعيفة فإنه يرويهما لغاية وقصد وهو توظيفها في وعظه و الانتفاع بها ما دامت لها مساس في حديثه وأدبه.

• موضوعات الرقائق في السنة النبوية:

لصلة موضوع الرقائق بالحديث النبوي الشريف، رأينا أن نعرض بعض الشيء على موضوعات الرقائق في كتب الحديث، كالصحيحين والسنن، وكتابي الزهد والرقائق للإمامين أحمد بن حنبل، وعبد الله بن المبارك. حتى نرى أثر ذلك في موضوعنا (أدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا)، ومما لا يخفى أن مواعظ الرسول ﷺ وكبار الصحابة في هذا الباب كثيرة، وأثرها في النفوس كبير إذ أصبحت منهلاً يغترف منه العلماء في وعظهم وإرشادهم، وتعد أسلوباً من أساليب التأثير في النفوس.

ويطول المقام بنا إذا ما استعرضنا واستقصينا المواعظ وأثرها في تغيير وتهذيب السلوك والطباع، و نقتصر على نموذج من السنة النبوية يظهر فيه أثر هذا اللون من المواعظ في النفوس، فقد ورد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال " وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة، موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعيش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليك بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ " (1).

فهذا حديث يبدأ بالموعظة كما يقول الصحابي ويصفها بأنها بليغة حتى ذرفت من بلاغتها العيون ووجلت من معانيها القلوب، فكان عليه الصلاة والسلام يحرص كل الحرص أن تكون مواعظه مؤثرة، ولذلك كان يتحين لها الفرصة والموقف المناسب في تهيئة النفوس

والقلوب لاستقبال مثل تلك المواعظ والوصايا، فقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ يتخولنا في الموعظة، أي يختار الموقف المناسب لها.

وليبيان أهمية هذا الموضوع (الرقائق) بين موضوعات الحديث النبوي الشريف جعل له علماء الحديث باباً خاصاً، وسموه باب الرقاق، ويشتمل هذا الباب على موضوعات عديدة أهمها:

- الزهد في الدنيا.
- الأمل وطوله.
- المحاسبة.
- الإخلاص.
- التقلل من الدنيا.
- الرجاء والخوف.
- الصبر والشكر.
- البكاء من خشية الله.
- الجنة والنار.
- الموت و الاحتضار.
- عقوبات الأمم الماضية.
- ذكر المعاصي.
- التقوى.
- الاعتبار والتفكير.
- حفظ الجوارح.
- محبة الله.
- الورع.
- الدعاء.
- التوكل على الله.
- الرضا بقضاء الله وقدره.

وغيرها من الموضوعات التي فصلتها كتب السنن، والزهد والرقائق (1) وهي بجملتها مواعظ ومواقف مؤثرة، هدفها وغايتها الأساسية تربية النفس تربية إيمانية مع جعل النفس شفافة، ذات شعور وإحساس رقيقين. ولذلك كان لعلمائنا في التربية والسلوك الدور الكبير والمتميز في أبراز هذا الجانب التربوي المهم في كتبهم ومواعظهم، وأبرزهم في هذا المجال الحافظ ابن أبي الدنيا، أشهر من صنف في الزهد والرقائق.

● تطور أدب الرقائق في القرن الثالث الهجري:

لابد من تسليط الضوء على حالة العصر العباسي، وخاصة حالة العصر في بغداد مدينة العلم والعلماء.

إن للثقافة والعلوم في ذلك العصر المكانة العالية، فقد اتسع نطاق العلوم اتساعاً كبيراً، فشمل جميع الفنون العلمية والإبداعية آنذاك العقلية والنقلية، وكان طلب العلم والسعي في تحصيله من مميزات ذلك العصر، فقد كان العلماء يعقدون الرحلات العلمية في مشارق الأرض ومغاربها بحثاً وطلباً للمزيد من العلم والأدب، لذلك نضجت ملكاتهم، فتقدموا في مجال البحث والتأليف والتصنيف، وأبدعوا في إنتاج أرقى المناهج في شتى العلوم. لقد كان دور الخلفاء في تشجيع العلماء عاملاً أساسياً في نشاط حركة العلم وازدهارها، ودافعاً لعجلة التقدم والرقي في ذلك العصر، كما أن لبعض الخلفاء في العصر العباسي دور المشاركة في كثير من العلوم، إذ منحوا المنح والجوائز المالية لمن يترجم كتب السابقين (2) في شتى المعارف والعلوم الإنسانية إلى اللغة العربية.

يقول (نيكلسون) " وفي عهد الدولة العباسية، كان الناس يجوبون ثلاث قارات، سعياً إلى موارد العلم والعرفان، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين ثم يصنفون - بفضل ما بذلوه من جهد متصل - هذه المصنفات التي هي أشبه بدوائر معارف، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل " (3).

(1) ينظر: صحيح البخاري، سنن ابن ماجه، الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك.

(2) اليونانية والهندية والفارسية.

(3)

إن أدب الرقائق و المواعظ قديم المنشأ، وهو عبارة عن حكم شعبية ولكنه لم يكن بتلك الصورة التي كان عليها في العصر العباسي، فـ " الزهد الأول والبدائي أقرب إلى أن يكون حكمة عرفتتها الشعوب قبل أن تعرف الدين، وأن الدين طور هذه الحكمة بشكل أفضل وأدخلها ضمن مباحثه ". (1) أي ضمن تطور الألفاظ الإسلامية، مع إدراكنا أن الزهد من مصادر الوعظ وغيره.

وبهذا التطور والتقدم العلمي كان لأدب الرقائق والمواعظ النصيب الأوفر في التقدم والتطور، حتى أخذ مسلكاً خاصاً به، وعرف به بعض العلماء والوعاظ، واشتهروا به كفنٍ جديد يخاطب العامة من الناس، ويوجههم، ومن أبرز من اشتهر بهذا الفن الجديد، عالمنا ابن أبي الدنيا، حتى أخذ ينعت به. قال ابن الجوزي فيه " وكان يقصد حديث الزهد والرقائق ". (2) وقال ابن كثير " الحافظ المصنف في كل فن، المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة الشائعة الذائعة في الرقائق وغيرها ". (3)

لقد نشأ أبي الدنيا في بغداد مركز الحضارة وشعاع العالم الإسلامي، وقد أشار الإمام الشافعي بعبارته المجللة والموجزة، وهو يسأل تلميذه يونس بن عبد الأعلى: يا يونس دخلت ببغداد؟ قال: قلت: لا. قال: ما رأيت الدنيا. (4)

لقد كانت بغداد تموج بالعلم، وتزخر بالنخبة من علماء الأمة في كل فن، حتى أصبحت أم مدائن الشرق في ذلك العصر. (5)

(1) شعر الزهد والتصوف، رافع سعد عبد الحليم: 19.

(2) المنتظم: 5/ 148.

(3) البداية والنهاية: 71/ 11.

(4) تاريخ بغداد: 1/ 403.

(5) ينظر: تاريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم حسن: 2/ 377.

❖ نبذة من حياة ابن أبي الدنيا :

حتى نحسن التعرف على أدب ابن أبي الدنيا، لابد من التعرف عن شيء من حياته العلمية، ومكانته الثقافية في عصره، وكما يلي:

● أسمه ونسبه:

هو الإمام الحافظ، المحدث، المؤدب، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس أبو بكر القرشي الأموي، مولاهم البغدادي الحنبلي، المشهور والمعروف بابن أبي الدنيا.(1)

● مولده ونشأته:

في بغداد حاضرة العالم الإسلامي، ومركز الخلافة والنشاط الفكري، ولد الحافظ ابن أبي الدنيا سنة 208هـ، في عهد الخليفة العباسي المأمون (ت218هـ) أواخر العصر العباسي الأول، عصر الحضارة الإسلامية الذهبي.

ولم يفارق ابن أبي الدنيا أرض بغداد إلا قليلاً، فنشأ في أسرة علمية، إذ كان لأبيه اهتمام بالحديث وروايته، فوجه ابنه نحو مجالس العلم على اختلافها، وفي مقدمتها مجالس الحديث. وأما عن رحلته في طلب العلم، فلم تذكر المصادر لنا شيئاً عن ذلك، وكأنه اكتفى بما وجدته في بغداد وما حولها من مدن العراق، فأخذ من أفواه علمائها، وتنقل بين حلقات العلم ومجالسه، حيث الدرس والتحصيل، وقد استطاع أن يحوز الإسناد العالي.(2) ويتمكن من السماع وهو يافع وسنه دون البلوغ.

(1) ينظر: الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم: 5/ 163. الفهرست، ابن النديم، الفن الخامس: 185. تاريخ بغداد: 89/10. طبقات الخنابلة، ابن أبي يعلى: 1/ 192. مروج الذهب، المسعودي: 1/ 12. الكامل، ابن الأثير: 7/ 155. الأنساب، السمعي: 10/ 96. المنتظم: 5/ 148. تهذيب الكمال، الحافظ المزني: 7/ 395. سير أعلام النبلاء، الذهبي: 13/ 397. تذكرة الحفاظ، الذهبي: 2/ 677. البداية والنهاية: 11/ 71. فوات الوفيات، ابن شاکر الكتبي: 1/ 494. تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني: 6/ 12. وغيرها.

(2) علو الإسناد: هو الذي قل عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يردُّ به ذلك الحديث بعدد أكثر. ينظر تيسير مصطلح الحديث:

وهذا دليل على اعتراض الإمام الذهبي الذي قال بنزول سنده وضعفه، لأنه قليل الرحلة في طلب العلم. وعلل ذلك بأن في الرحلة يطلب علو الإسناد ولقاء الشيوخ الثقات والراية عنهم⁽¹⁾.

وهذا الاعتراض غير مسلم له، فليس كل من قلت رحلته نزل سنده، فهناك عشرات من الأئمة والحفاظ لم يرحلوا عن بلدهم، وأكتفوا بما فيها من علم وعلماء. ومن صنع صنيع ابن أبي الدنيا ولم يرحل من بلده، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، الذي لم يرحل عن بغداد لطلب العلم،⁽²⁾ والذي "يبدوا أن المسوغ له في العزوف عن الرحلة، والعكوف على بغداد هو ذلك العدد الهائل من العلماء النازلين وفيهم سادات الأمة، ثقة وعدالة، وضبطاً واتقاناً، وعلوا في السند، مع وفرة في المرويات، كأحمد بن حنبل (ت241هـ) وسعيد بن سليمان الواسطي (ت225هـ) وخالد بن خدّاش (ت223هـ) وأحمد بن منيع (ت244هـ) وعلي بن الجعد (ت230هـ) ويحيى بن معين (ت233هـ)".⁽³⁾

فقلة رحلته في طلب العلم إنما كان بسبب اكتفائه بما وجده من وفرة العلماء في بلده بغداد. ويكفيه بهذا أن ينال الرتبة المرموقة في الرواية وضبطها، وفي هذا يقول الإمام النووي في بيان منازل تحصل الحديث وحياسة شرفه "ثم ليفرغ جهده لتحصيله - أي الحديث - بالسماع من شيوخ بلده إسناداً، وعلماء، وشهرة، وديناً، وغيره، فإذا فرغ فليرحل على عادة الحفاظ المبرزين".⁽⁴⁾ فإما السماع من العلماء دون رحلة لوفرتهم، وإما الرحلة كما اعتادها الحفاظ.

• شيوخه وتلامذته:

- (1) ينظر: سير أعلام النبلاء: 13/ 399.
- (2) ذكر الخطيب البغدادي أمرين مهمين للرحلة في طلب العلم، فقال (المقصود في الرحلة في طلب الحديث أمران: أحدهما تحصيل علو الإسناد، و قدم السماع، والثاني لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة عنهم، فإذا كان الأمران موجودين في بلد الطالب، ومعدومين في غيره، فلا فائدة في الرحلة، والاقتصار على ما في البلد أولى). ينظر: الجامع لأخلاق الراوي: 2/ 223.
- (3) ينظر: مقدمة الصمت آداب اللسان، المحقق نجم عبد الرحمن خلف: 59.
- (4) تقريب الإرشاد، النووي: 29.

إن لتبكير الحافظ ابن أبي الدنيا في طلب العلم وتحملته، وسماع الحديث و روايته، وهو يافع دون سن البلوغ، والسماع من شيوخ كبار، أثر بارز في تحصيل علمه الوافر الغزير، فقد روى عن عدد كبير من الشيوخ، جمعهم الحافظ المزي مرتبين على حروف المعجم فبلغوا مائة وتسعة عشر شيخاً، كما جمع الحافظ الذهبي أسماء شيوخه على الاختصار فبلغوا أربعة وتسعين شيخاً.(1)

ومن العلماء الذين تأثر بهم الحافظ ابن أبي الدنيا :

الإمام الزاهد محمد بن الحسين البرجلاني (ت238هـ)، وهو إمام كبير من أئمة الزهد وصاحب التأليف في الزهد والرقائق، اتصل به الحافظ ابن أبي الدنيا وتأثر به وعمره دون البلوغ، إذ كان يدع الرواية والسماع عن عفان بن مسلم المحدث الحافظ الثقة، ويذهب إلى البرجلاني.(2)

والشاعر البغدادي محمد بن الحسن الوراق. روى عنه ابن أبي الدنيا كثيراً من شعره وأكثر شعره في المواعظ والحكم.(3)

وكما هو الحال في كثرة شيوخ ابن أبي الدنيا ومن روى عنهم، كذلك كان تلامذته الذين روا عنه مصنفاته وآثاره كثيرين أيضاً. فقد عد له الحافظ المزي من أسماء تلامذته مرتبين على حروف المعجم نحو خمس وخمسين تلميذاً.(4)

فقد أخذ العلم منه كبار الفقهاء والمحدثين، وهم من أعلام العصر وحفاظه، كابن أبي حاتم وابن خزيمة، والقاسم بن أصبغ، وغيرهم كثير.

(1) ينظر: تهذيب الكمال: 2/ 736. وسير أعلام النبلاء: 13/ 397.

(2) ينظر: الجرح والتعديل: 7/ 229. و تاريخ بغداد: 2/ 222.

(3) ينظر: تاريخ بغداد: 3/ 87.

(4) ينظر: تهذيب الكمال: 2/ 736.

• مكانته العلمية:

إن فضل الحافظ ابن أبي الدنيا واضح وجللي، ويدل على ذلك ما تمتع به من عقلية واسعة ونظرة شمولية للعلم. فقد زاد عدد مصنفاته على المائتين، ما بين كتاب ورسالة، في صنوف العلم والأدب والفنون، وشملت أحاديثاً وأخباراً لا توجد بعضها في مصنفات أخرى، مع ما فيها من مخبآت وعجائب من الأقوال والآثار، وزعت على مصنفاته النادرة، فالناس عيال عليه في العلوم والفنون التي جمعها، قال ابن تغري بردي " والناس بعده عيال عليه في الفنون التي جمعها، وروى عنه خلق كثير " (1).

وإن الذي يصور منزلة الحافظ ابن أبي الدنيا العلمية، واتجاهاته الإصلاحية والتربوية، آثاره ومصنفاته الكثيرة، التي أنتجها وخلفها، فالحافظ محدث ثقة، وفقه عارف، ومؤرخ جامع، وزاهد ورع، و أديب فاضل، ومكثر من الشعر وروايته، ومتمكن في اللغة وعلومها. فهو مثال العالم الموسوعي الشمولي للعلوم كلها.

و أما عن تمكنه وموسوعيته في العلوم، فهو عالم بالقراءات القرآنية، فقد أهتم بقراءة القرآن ودرس علم القراءات على يد الإمام الحافظ خلف بن هشام المقرئ (ت229هـ). (2) وأما عن تمكنه بعلم الحديث وروايته فهو عالم بالحديث، فقد طلب الحديث وسماعه وهو دون العاشرة من عمره، واعتنى به عناية كبيرة، فسمع والتقى بالمشايخ والأئمة، فحصل منهم علماً غزيراً، حتى أنه سمع ممن هو دون طبقة. قال الذهبي " حتى كتب عن أقرانه بل أصغر منه ". (3) ولسعة علمه وتمكنه في الحديث أطلق عليه لقب الحافظ. كما له ولع بالغ وعناية فائقة في الأخبار والسير والتاريخ، حتى أصبح إماماً كبيراً في هذا الفن، وقد تخرج على يد الإمام أبي عبد الله محمد بن سعد البغدادي كاتب الواقدي ومصنف الطبقات. (4)

أما عن الزهد والرقائق فهو فارس ميدانها، وصاحب السبق في كثرة التأليف فيهما. فقد تخرج على يد الإمامين الجليلين أحمد بن حنبل، ومحمد بن الحسين البرجلاني.

(1) ينظر: النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي: 3 / 86.

(2) ينظر: تاريخ بغداد: 8 / 322.

(3) تذهيب تهذيب الكمال: 2 / 184.

(4) ينظر: سير أعلام النبلاء: 11 / 496.

أما عن مكانته في اللغة والأدب، فهو ذو عناية فائقة بهما. إذ تخرج على يد عالم من علمائها وهو الإمام المجتهد أبو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ) ومن تمكنه باللغة أنه كان يدرس أمهات الكتب لطلابه، إذ حكى عن نفسه أنه كان يؤدب المكتفي الخليفة، فقال "كنت أأدب المكتفي فأقرأته كتاب الفصيح". (1) وهو ذو عناية أيضاً بالشعر، إذ كان ينظم الشعر، وشعره يغلب عليه جانب المواعظ والحكم. ومن شعره ما حكاه عمر ابن سعد القراطيسي قال كنا عند باب ابن أبي الدنيا ننتظر، فجاءت السماء بالمطر، فأتتنا جارية برقعة، فقرأتها فإذا فيها مكتوب:

أنا مشتاق إلى رؤيتكم يا أخلائي وسمعي والبصر
كيف أنساكم وقلبي عندكم حال في ما بيننا هذا المطر (2)

● ثناء العلماء عليه:

يعد الحافظ ابن أبي الدنيا من العلماء البارزين في القرن الثالث الهجري، وخاصة في الحديث والأدب والسير، فقد ارتضاه الخلفاء أن يكون مؤدباً لأولادهم، وكان طلبة العلم يقصدونه من مشارق الأرض ومغاربها. يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن "وقد نبغ في عهد المعتضد كثير من الكتاب والمفكرين والشعراء، نخص بالذكر منهم ابن أبي الدنيا (ت281هـ) مثقف الخليفة المكتفي في حياته". (3) وممن أثنى عليه ووثقه الإمام الذهبي قال "كان صدوقاً، أديباً، إخبارياً، كثير العلم، حديثه في غاية العلو". (4) كما أثنى عليه ابن النديم قال "كان ورعاً، زاهداً، عالماً بالأخبار والروايات". (5) وقال مرتضى الزبيدي "حافظ

(1) فوات الوفيات: 494/1.

(2) ينظر: المنتظم: 148/5.

(3) تاريخ الإسلام السياسي: 18/3.

(4) تذهيب تذهيب الكمال: 184/2.

(5) الفهرست: 262.

الدنيا ابن أبي الدنيا". (1) وقال الزركلي " وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام و ما يلائم طباع الناس، إن شاء اضحك جليسه وإن شاء أبكاه ". (2).

● مؤلفاته:

اشتهر ابن أبي الدنيا بكثرة مصنفاته، حتى صار ينعت بها (3) وهي عبارة عن رسائل صغيرة نافعة، كان يقوم بتصنيفها وترتيبها، يبدأ بالآيات القرآنية، ثم يثني بالأحاديث النبوية، ثم يطرزها بالأشعار المستحسنة، والقصص والأخبار الجيدة والمؤثرة، على الرغم من اختلاف الموضوعات التي صنف فيها، فإننا نجد لها على طريقة المحدثين المعنوية بذكر السند. ومع كثرة تصانيفه وشهرتها، ذكر بعضهم عددها، واختلفوا في ذلك، فقال ابن الجوزي " صنف أكثر من مائة مصنف في الزهد ". (4) وقال ابن كثير " وهي تزيد على مائة مصنف، وقيل إنها نحو الثلاثمائة مصنف، وقيل أكثر وقيل أقل ". (5).

● وفاته:

مات الحافظ أبو بكر ابن أبي الدنيا في بغداد سنة إحدى وثمانين ومائتين من الهجرة. وفي خبر وفاته قال الخطيب البغدادي " قال القاضي أبو الحسن: وبكرت إلى إسماعيل ابن إسحاق القاضي يوم مات ابن أبي الدنيا، فقلت له: أعز الله القاضي، مات ابن أبي الدنيا، فقال: رحم الله أبا بكر، مات معه علم كثير، يا غلام! إمض إلى يوسف حتى يصلي عليه، فحضر يوسف بن يعقوب، فصلى عليه في الشونيزية، ودفن فيها ". (6).

(1) إتحاف السادة المتقين: 7/ 88.

(2) الأعلام: 4/ 118.

(3) ينظر: معجم مصنفات ابن أبي الدنيا، صلاح الدين المنجد: 597. مجلة المجمع العلمي دمشق. المجلد 49. سنة 1947م.

(4) المنتظم: 5/ 148.

(5) البداية والنهاية: 71/11.

(6) تاريخ بغداد: 10/ 91. والشونيزية: مقبرة ببغداد بالجانب الغربي، دفن فيها جماعة من الصالحين، منهم الجنيد البغدادي. وينظر:

معجم البلدان، ياقوت الحموي: 3/ 374.

الفصل الأول

الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا

ويتضمن : مدخلا وثلاثة مباحث .

المبحث الأول : العقائد .

المبحث الثاني : الأخلاق .

المبحث الثالث : العلاقات والأحوال الاجتماعية .

مدخل:

إن الموضوعات التي عالجها ابن أبي الدنيا، جاءت على شكل مصنفات، فكل موضوع جاء مستقلاً في مصنفٍ منفرد، ويعزى هذا إلى كثير من الموضوعات، وليس علي الإطلاق. ويضح ذلك إذا نظرنا في مصنفاته المتداولة وكذلك في المصنفات المفقودة _ إذ هي منهجية ثابتة لدى ابن أبي الدنيا _ ومن أهم هذه المصنفات كتاب الإخلاص والنية، و الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان، والتواضع والخمول، والتوكل على الله، والحلم، وذم المسكر، و الرقة والبكاء، و الصبر، وصفة الجنة، و صفة النار، و الصمت وآداب اللسان، والعقوبات، و العيال، والفرج بعد الشدة، وقصر الأمل، وقضاء الحوائج، و المحتضرين، و مكارم الأخلاق، و من عاش بعد الموت، و الورع، و اليقين، وغيرها. وهذه هي أهم كتبه المطبوعة التي نستطيع الاطمئنان إلى مطابقة عنواناتها مع محتواها.

وهذه العناية بفرز الموضوعات لا تنفي شمولية اهتمامات ابن أبي الدنيا، إذ من الواضح أنه كان يهدف إلى الشمولية واستيعاب جوانب التربية الإسلامية في الميادين المختلفة، العقائدية، والاجتماعية، والأخلاقية، و غيرها من اهتمامات الوعاظ والمصلحين، و الدعاة في مساجدهم، ومنا سباتهم المختلفة، ولكنها شمولية منضبطة، ومنهجية موزعة بعناية على موضوعات أساسية واضحة، وهذه طريقة ابن أبي الدنيا في مصنفاته كافة، فهي تمتاز بالوحدة الموضوعية، والتخصص الدقيق.

وهذا لا يعني أننا ننفي التداخل والاشتراك بين مصنفاته المختلفة، فقد يشتمل النص على حكمين أو أكثر، فنراه يعيده في مكان آخر أو في مصنف آخر، وهو أمر لا يمكن تفاديه، ولكون مصنفاته تصب في موضوع عام هو الرقائق.

ومعنى ذلك أن ابن أبي الدنيا كان يجمع مادة مصنفاته _ المتميزة بجودة الترتيب والتبويب _ ثم يضمها إلى أي مصنف من مصنفاته الكثيرة، مع أن مصنفاته ذات منهج واضح، فيها الدقة والوعي والفهم، فهي تبدأ بالقرآن الكريم والحديث النبوي المرفوع الأقرب من الصحة والحسن، ثم يعقب ذلك بما رواه عن شيوخه من أخبار الصحابة والتابعين، و

الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا

من بعدهم من الزهاد والأئمة و نحوهم، كما طرز مصنفاته بعشرات الأبيات والقطع من شعر الرقائق، مما قاله زهاد الشعراء من السلف، فجمع بين النثر والشعر التربوي الهادف والموجه. وهذا شأن ابن أبي الدنيا، فقد أحسن توظيف الظاهرة الشعرية، والتذوق الأدبي، الذي كان عليه جيل المسلمين في القرن الثالث الهجري في مواعظه ورقائقه.

فالإنسان ربما " يسمع المعنى نثراً، فلا يهزُّ له عطفاً، ولا يهيج له طرباً، فإذا حوّل نظماً فرّح الحزين، وحرك الرزين وكرم البخيل، ووقر الإحليل، وقرب الأمل البعيد " (1).
 " وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن عن الصوت: يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر " (2). والذي يظهر لنا أن منهج ابن أبي الدنيا في أغلب كتبه منهج نصي، فهو يورد مرويّاته التي تحملها عن مشايخه، ولم يتعرض لها بنقد أو تقييم، ولكنه في نفس الوقت استخدم منهجه النقدي في انتقاء هذه المرويّات دون غيرها، وعدل عن كثير من غيرها.

بهذا تكون منهجيته وقدرته على حسن التصنيف وجودة الترتيب والتبويب لا تقل شأنًا عما صنفه الأئمة الكبار، والمحدثون العظام، وتجدر الإشارة إلى أن الحافظ ابن أبي الدنيا ليس من الوعاظ المباشرين، فهو صاحب ذوق أدبي، وكل ما رواه من مرويّات أعتمد في اختياره على الصور الفنية، فأسلوب مرويّاته قائم على التفنن الأدبي، وهذا سنتناوله بدراسة مستقلة في الفصلين الثاني والثالث.

ويمكن ملاحظة كون بعض مصنفاته التي بلغتنا تدرج تحت موضوعات رئيسة، نحو علم العقائد، والأخلاق والسلوك، وأحوال العلاقات الاجتماعية، وهذا ما جعلني أتبع موضوعات مرويّاته وأدرسها دراسة موضوعية.

المبحث الأول: العقائد.

(1) خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصبهاني الكاتب، القسم العراقي: 1/ 202.

(2) وحي القلم، أرافعي: 3/ 285.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

إن عقيدة التوحيد من أهم الأسس التي قام عليها الإسلام، بل هي من أهم الأصول والأركان التي قامت عليه الرسالات السماوية كافة.

والحافظ ابن أبي الدنيا، حاول أن يعرض مسائل العقيدة الإسلامية الصافية السمحة _الخاصة بالغيب _ من جوانبها المؤثرة التي تجدها وقعا في النفوس، واضعا العلاج الناجع لما يحتاجه عصره من جمع المسلمين على أفكار رئيسة واحدة. ولم يخض في مسائل الغيب الفلسفي النظري. ⁽¹⁾ فهو يدعو لتبسيط المسائل الاعتقادية، فلا يطرح على الناس إلا الأصول الواضحة والمتفق عليها.

ويرى أن طرح مثل هذه المسائل لا ينفع المسلمين بشيء، ولا يخدمهم في حياتهم لما لها من أثر سلبي في وحدة الصف، إذ تزيد الفرقة والتشتت و التمزق. لذا نراه عند ما يصنف في مجال الغيبيات يتطرق إلى أحوال اليوم الآخر ويركز عليها، مثل الجنة والنار، والحساب والعقاب، والصراط والبعث، و النشور، والميزان، والموقف، وغيرها من الوسائل المتفق عليها والضرورية المؤثرة في واقع المجتمع.

والحافظ ابن أبي الدنيا، لم تأت فكرته التصنيف والتأليف في هذا المجال من فراغ، وإنما جاءت ضرورة ملحة، تقتضيها أحوال المجتمع الإسلامي، فقد كانت التيارات وخلافات الأحزاب على أشدها سياسية وفكرية ودينية، كأهل السنة والجماعة، و الإمامية، والقرامطة، والخوارج، والمعتزلة، وغيرها من المدارس والتيارات المتنازعة والمتخاصمة.

فأراد ابن أبي الدنيا أن يوضح أسس العقيدة الصافية في عصر الفتن، فاستطاع بعرضه الشمولي المتزن أن يوجه المجتمع إلى عصر الرسالة، عصر الصفاء والوحدة.

فتناول في هذا المسائل الغيبية الضرورية لدى المسلم، وهي مسائل مؤثرة في السلوك ومؤدية إلى رقة القلوب، كذكر الموت، ويوم القيامة، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

• ذكر الموت:

(1) كمسائل الصفات الإلهية وخلق القرآن والقدر والجبر والاختيار.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويآب ابن أبي الدنيا ﴾

ورد ذكر الموت في عدد كبير من آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ " (1) وقوله تعالى " أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ مَّشِيدَةٌ " (2) فالموت هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، وهو " صفة وجودية خلقت ضد الحياة " (3)

إن القلب القاسي يلين بذكر الموت، الذي هو هادم اللذات ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات، إذ أن ذكر الموت كان مما يعالج به علل النفوس، فالموت مصير كل حي، والدنيا رحلة حتى إذا انتهت الرحلة صار المرء إلى النهاية المصيرية بلا اختيار و لا فراق، قال سبحانه وتعالى " قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " (4)

ولهذا أمر الرسول ﷺ بالإكثار من ذكر الموت، عند ما قال " أكثروا ذكر هادم اللذات الموت " (5) وقال أيضاً في الحديث المروي عن أنس " كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنه يرق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة ولا تقولوا هجرا " (6)

وقد تأثر بعض الشعراء من الزهاد بهذه الصورة القرآنية، واتخذوها وسيلة لوعظ الناس وإرشادهم، وتنبههم على غفلتهم عن الموت المفاجئ، الذي يأتي بغتة، ومن هؤلاء أبو بكر بن علي، حيث قال ابن أبي الدنيا، أنشدني أبو بكر بن علي قوله:

قُلْ لِلْمَوْتِ إِنْ الْمَوْتِ فِي إِثْرِكَ وَلَيْسَ يَخْضِي مَخْلِكَ الْأَمْرُ مِنْ نَظَرِكَ
فَيَمُنْ مَضَىٰ لَكَ إِنْ فَكَّرْتَ مَفْتَكِرَ وَمَنْ يَمُنْ كُلَّ يَوْمٍ فَهُوَ فِي نَذَرِكَ
دَارٌ تَسَافَرُ فِيهَا مِنْ خَدِّ سَفَرًا فَلَا تُؤَوِّجُ إِذَا سَافَرْتَ مِنْ سَفَرِكَ
تَضْحِي خَدًّا سَمَرًا لِلذَّاكِرِينَ كَمَا صَارَ الَّذِينَ مَضَوْا بِالْأَمْسِ مِنْ سَمَرِكَ (1)

وقال أنشدني أبو بكر بن علي قوله:

(1) سورة العنكبوت: الآية 57.

(2) سورة النساء : الآية 78 .

(3) التعريفات : 164.

(4) سورة الجمعة : الآية 8 .

(5) رواه الترمذي: 4 / 739.

(6) رواه الحاكم في المستدرک: 1 / 532.

(1) قصر الأمل : 53 .

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

نُودِي بِصَوْتِ أَيَّمَا صَوْتٍ مَا أَقْرَبَ الْحَيِّ مِنَ الْمَوْتِ
كَأَنَّ أَهْلَ الْغَيِّ فِيهِمْ قَدْ أَخَذُوا أَمْنًا مِنَ الْمَوْتِ
كَمْ مَصِيبٌ يَعْمُرُ بَيْتًا لَهُ لَمْ يُمَسِّ إِلَّا خَارِبَ الْبَيْتِ
هَذَا وَكَمْ حَيٌّ بَكَى مَيِّتًا فَأَصْبَحَ الْحَيُّ مَعَ الْمَيِّتِ⁽²⁾

وإذا كان الموت مصير الأحياء، وحتما في رقاب العباد.⁽³⁾ فلا بد من المراقبة له، والاعتبار به، وعدم الأمن منه، أو الغرور بطول الأمل له، فإن مما يفسد النفس ويدفعها إلى الشهوات المذمومة طول أملها، ونسيانها الموت، فابن أبي الدنيا يروي عن رجل يحاسب نفسه عند نزول الموت به، فيحذر من الاغترار بطول العمر والصحة، فالموت إذا جاء فجأة لا يمنع عنه كثرة المال والجنود، فقال "أيها المغتر بطول صحته، أما رأيت ميتاً قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً قط من غير عُدة؟ إنك لو فكرت في طول عمرك، لنسيت ما قد تقدم من لذاتك. أبالصحة تغترّون؟ أم بطول العافية ترحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على ملك الموت تجترئون؟ إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص، وندامة على التفریط؟ ثم يقول: رحم الله عبداً عمل لساعة الموت. رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت. رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الموت".⁽⁴⁾

إن الموت من أعظم المصائب وقد سماه الله تعالى مصيبة. قال تعالى "فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ".⁽¹⁾ ذلك لأن الموت تبدل من حال إلى حال، و انتقال من دار إلى دار، فهو المصيبة العظمى والرزية الكبرى، وأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وقلة التفكير فيه، وترك العمل له، فالموت وحده عبرة لمن أعتبر، وفكرة لمن تفكر، وكفى بالموت واعظاً.

(2) المصدر نفسه : 53 .

(3) منه قول الشاعر: قد كان في الموت له راحةٌ والموت حتمٌ في رقاب العباد. ينظر: البيان والتبيين: 1/ 164.

(4) قصر الأمل : 61 .

(1) سورة المائدة: الآية 106 .

(2) سورة ق: الآية 16 .

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مزيوات ابن أبي الدنيا ﴾

والموت من المرء قيد شبر الشابر، بل هو أقرب قال تعالى " وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ " (2) ومجيئه بغتة، فلا يترك الغني لغناه ولا الفقير لفقره، ولا ينفع معه قوة سلطان، ولا كثرة مال ولا صحة بدن، ويصور حقيقة ذلك ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا من قول الشاعر سابق البربري (3) لعمر بن عبد العزيز فعن ميمون بن مهران (4) أنه قال " دخلت على عمر بن عبد العزيز يوما وعنده سابق البربري الشاعر، وهو ينشد شعرا فانتهى بشعره إلى هذه الأبيات:

وكم من صحيحٍ بات للـموت آمناً	أتته المنايا بغتةً بعد ما هجع
ولم يستطع إذ جاءه الموت بغيةً	فراراً ولا منه بقوته أمتنع
فأصبح تبكيه النساء مقتنعا	ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
ولا يترك الموت الغني لـماله	ولا معدماً في الحال إذا حاجة يدع

قال: فلم يزل عمر رحمه الله يبكي ويضطرب، حتى غشي عليه " (5).

وذكر الموت جعل العارفين بسكراته وشدته، يزهّدون بالدنيا وما فيها من ملك ونعيم ولذة، ويقلّلون من الاهتمام بها، وتعظيم شأنها، فمن فوائد ذكره ترك الفرح في الدنيا، وتحويل المصائب فيها وردع المرء عن ارتكاب المعاصي، وفي ذلك يقول ابن أبي الدنيا " لما حضرت عبد الله بن عبد الملك الوفاة، أتاه بشيرٌ يبشره بماله الذي كان بمصر حين كان عليها عاملاً، فقليل: هذا مالك ثلاثمائة مُدّي ذهب، فقال: مالي وله، لوددتُ أنه كان بعرّاً حائلاً بنجد " (1) ومثله أيضاً " أن مَلِكاً نزل به الموت، فأطاف به أهل مملكته. فقالوا: لمن تدعوا الغنى والمال؟ فقال: أيها القوم لا تجهلوا في ملك من لا يبالي أصغير أخذه

(3) هو سابق بن عبد الله البربري الرقي، أبو سعيد الشاعر، قيل هو مولى مر بن عبد العزيز، وهو أحد الزهاد المشهورين، أنشد الخليفة عمر بن عبد العزيز أشعاراً في الزهد. ينظر: الوافي للوفيات، الصفدي: 69 / 15.

(4) ميمون بن مهران: هو ميمون بن مهران الجزري أبو أيوب الرقي، كان مملوكاً لأمراة من أهل الكوفة من بني نصر فأعتقه، وبها نشأ ثم نزل الرقة. قال الأمام أحمد: ميمون ثقة، أوثق من عكرمة، ولي خراج الجزيرة لعمر بن عبد العزيز. ت 116هـ. ينظر: تهذيب الكمال: 210 / 29.

(5) قصر الأمل : 122.

(1) المختصرين : 99 .

(2) المصدر نفسه : 99 .

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مروياف ابن أبي الدنيا ﴾

أم كبير". (2) ومثله " أن رجلاً كان عاملاً، فجعل ماله في سارية، فلما أحتضر قال: حرقوا هذه السارية، فحرقوا وانتثر المال، فقال: يا ليتها كانت بعراً، يا ليتها كانت بعراً". (3) وأما حال الخلفاء والملوك عند ما ينزل بهم الموت، فأحدهم يتمنا أنه لم يكن شيئاً فهذا عبد الملك بن مروان في مرض موته يقول " والله لوددت أني عبدٌ لرجلٍ من تهامة أرعى غنيمات في جبالها، وأني لم أل". (4)

ولا شك أن الدنيا وأهلها إلى الموت والفناء، ولا يبقى إلا خالقهما، قال تعالى "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ". (5)

فقد يكون الموت راحة من كل شر، وقد يكون إذلالاً وإهانة لمن يستحق الإذلال والإهانة، وذلك فيمن تكبر وتجبر، فروى ابن أبي الدنيا أنه " كان في بني إسرائيل ملك فقال: ما أعلم اليوم أحداً أعزّ مني: قال: فسلط الله عليه اضعف خلقه: البعوضة، فدخلت في منخره، فجعل يقول: اضربوا ها هنا ! فضربوا رأسه بالفؤوس حتى هُشِمَ!". (6)

ومثله أيضاً عن ابن عباس ؓ قال " تكلم ملك من الملوك بكلمة وهو جالس على سريره، فمسخه الله ^{وَجَلَّ} فما يدرى أي شيء مسخ: أذبابٌ أم غيره؟ ألا أنه ذهب". (1) هكذا هو الموت منغص اللذات وهادمها، فمعه يتوقف كل شيء، تتوقف الصرخات والقهقهات ويتوقف الكبرياء والاستعلاء، والظلم والجبروت، و لا يبقى إلا العمل الصالح يشفع لهم، فلا يشفع لهم الترف، الذي كانوا يرفلون فيه، والقصور التي كانوا يشيدونها، والأجساد الناعمة المنعمة، التي كانت تزيدهم حسناً إلى حسنهم والعطور التي كانت تفوح من أجسادهم، فقد يستبعد الغافل الموت، و يستبعد وقوعه فيأتيه بغتة، فتراه ساهياً لاهياً

(3) المصدر نفسه : 100 .

(4) المصدر نفسه : 90 .

(5) سورة الرحمن : الآية 26-27 .

(6) العقوبات : 161 .

(1) العقوبات : 161 .

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

لأعباً، يبني قصوره ثم يتركها سوداء مظلمة بعده، قال ابن أبي الدنيا: أنشدني أحمد ابن موسى: (2)

جھولٌ ليس تنهاه الذواهي ولا تلقاه إلا وهو ساهي
يُسَرُّ بيومهم لعباً ولهاواً ولا يدري وفي تحه الذواهي
مررتُ بقصره فرأيتُ أمراً محبباً فيه مزججراً وناهي
بدا فوق السرير فقلتُ: ماذا ؟ فقالوا: ذلك الملك المباهي
رأيتُ الباءة أسودَ والجواري ينحنّ وهنّ يكسرن الملاهي
تبين أي دار أنت فيها ولا تسكن إليهما وأدر ما هي (3)

فالمت مثل الطوفان، الذي يغمر اليابسة شيئاً فشيئاً، والعاقل من لا يعيش في أوهام ابن نوح عليه السلام، عند ما ظن أنه سينجو من الطوفان، عند ما لجأ إلى قمة الجبل، فإذا جاء طوفان الموت، فركب سفن التقى، واستعد ليوم مضجعك، فعن عبد العزيز بن رواد (1) قال " دخلت على المغيرة بن حكيم (2) في مرضه الذي مات فيه، فقلت: أوصني، فقال: اعمل لهذا المضجع ". (3)

وفي ضوء هذه النصوص التي عالج فيها ابن أبي الدنيا مسألة الموت، نراه قد جعله كأنه رجل يتكلم بين الناس، يفصح عن شخصيته، ويبرز معاملة أمامه حتى ارتقى في الناس فكان واعظاً بحق، ويتضح من ذلك ما يأتي:

- ◆ حتميته على كل قوي وضعيف، وهذا يوعظ به المتكبر والمتجبر.
- ◆ الجهل بموعده، ومكانه وهذا يوعظ به المسوف، الذي يؤجل التوبة.

(2) هو أحمد بن موسى الثقفي، كان شاعراً أديباً، فصار صابراً أريباً، رغب عن الدنيا وأقبل على المعاد، وصار للزود عاشقاً، له أبيات في ذم الدنيا والمغرورين بها. ينظر: حلية الأولياء، أبو نعيم: 138 / 10.

(3) قصر الأمل: 188. إن البيت الرابع، ينبغي أن يقدم ليصح المعنى، إذ أنه رآه أولاً على السرير أي العرش، ثم رأى القصر أسود والجواري يكيين... الخ.

(1) هو عبد العزيز بن أبي رواد بن بدر المحكي، مولى المهلب بن أبي صفرة، وهو خرساني الأصل، سكن مكة متعبداً. قال عنه الأمام أحمد: رجل صالح الحديث. مات بمكة 159هـ. ينظر: تهذيب الكمال: 136 / 18.

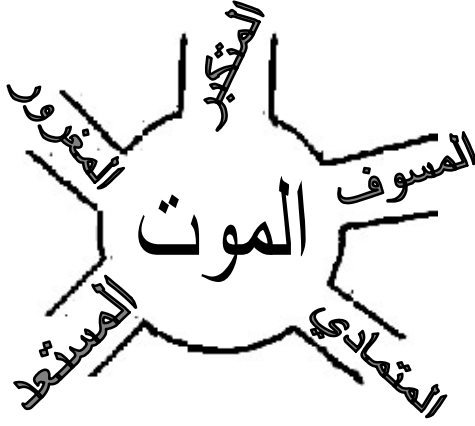
(2) هو المغيرة بن حكيم الصنعاني الأبنواوي، ثقة استشهد به البخاري وروى له مسلم و الترمذي والنسائي. ينظر: هذيب الكمال: 356 / 28.

(3) المختصرين: 129.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مروياء ابن أبي الدنيا ﴾

- ◆ لا قيمة مع الموت للمال ولا الجاه، ولا السلطان، يترك الإنسان كل شيء بعده.
- ◆ الموت مخيف، قاس، مؤلم، وبعده القبر، وبعده العالم الآخر، وبعده الحساب الدقيق على العمل.

وهذا رسم توضيحي للموت.



• قيام الساعة وبعض علاماتها:

عبر الله سبحانه وتعالى عن هول هذا اليوم بما يناسبه من الخوف والفرع، فهو انقلاب تام لنظام الحياة المعهودة، قال تعالى "يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ". (1)

فهو يوم تمور فيه السماء موري، وتدور بأجرامها، و أفلاكها، كأنها الرحي، فيحدث الانفطار، ويتسع الانشقاق، وتطوى كطي السجل للكتب، وتضطرب الأرض وتفقد توازنها، فترجف ارتجافاً، وتنفض ما في جوفها نفصاً، من أموات ومعادن، وغيرها، إنه انشقاق السماء الواهية، الذي يؤدي إلى انتشار النجوم والكواكب والشمس والقمر، وإخفاء ضوءهما، إنه عرض يصور ذلك اليوم "فها نحن أولاء نشاهد العرض، نشاهده مجسماً، مخيلاً في أشد المواضع التي يحرص الإسلام على التجريد فيها، والتنزيه، ولكن طريق التعبير بالتصوير تختار التجسيم في هذا الموضع أيضاً لمجرد إثارة الحس وإشراك الخيال، والتأثير الوجداني الحار، فهنا السماء قد انشقت، فهي واهنة واهية". (2)

وينتقل فزع وخوف هذا اليوم إلى الإنسان، فالتعبير القرآني يرسم ملامح الفزع والذهول، فالمرأة الحامل يسقط حملها دون أرادتها، والمرضة تذهل عن رضيعها، والناس تحسبهم سكارى وما هم بسكارى، ولكنه الفزع الذي يجعلهم لا يعلمون أين المفر قال تعالى "يا أيها الناس اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١٠١﴾ يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ". (3)

فأثر هذا اليوم التربوي يستوجب توضيحه، فهو أمر غيبي، يعمل على ترسيخ العقيدة في النفوس، وهو ركن من أركان الإيمان، من كفر به كان كافراً بإجماع المسلمين، ووفرة

(1) سورة إبراهيم: الآية 48 .

(2) مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب: 184.

(3) سورة الحج: الآية 1-2 .

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

النصوص التي تدور حول يوم القيامة، لفتت أنظار كثير من العلماء حتى قاموا بتأليف كتب تجمع هذه النصوص.⁽¹⁾

وأثر يوم القيامة يظهر على وجه النبي ﷺ فإذا ذكر قيام الساعة رفع صوته واحمرّت عيناه، وكأنه منذر جيش، فروى الحافظ ابن أبي الدنيا عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب فذكر الساعة، رفع صوته، واحمرّت عيناه، كأنه منذر جيش، يقول: صبحتكم، أو مسيتكم، ثم يقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، يفرق بين إصبعيه السبابة و التي تليها ". (2)

ومثله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً، ولا تزداد منهم إلا بعداً ". (3)

والمراد بالساعة هنا يوم القيامة، والإشارة بإصبعيه يراد بها قلة المدة بينه وبين الساعة، فالرسول ﷺ يمثل المعنى المجرد بصورة حسية مرئية، فقد بعث هو والساعة متلازمين، كما تلازم السبابة الوسطى التي تليها وكما تجاورها. (4)

فالرسول ﷺ استوحى ذلك من وفرة النصوص القرآنية التي تعالج الموضوع ذاته، كقوله تعالى " اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ". (5) وقوله تعالى " وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ". (6) بأن القرآن الكريم يقرب أمر الساعة كثيراً جداً قال تعالى " وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ". (7)

(1) أمثال كتاب التذكرة للقرطبي، ومشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب، والقيامة لأبن أبي الدنيا.

(2) قصر الأمل: 96. الحديث رواه مسلم: 592/2.

(3) العقوبات: 186، الحديث رواه الحاكم في المستدرک: 4/359. قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(4) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد لطفي الصباغ: 112.

(5) سورة القمر: الآية 1.

(6) سورة الأحزاب: الآية 63.

(7) سورة النحل: الآية 77.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وهو قريب الوقوع إلا أنه ليس بأحد من الناس علم به فهو من الغيب الذي اختص الله تعالى بعلمه، إذ عند ما سئل رسول الله ﷺ متى الساعة؟ قال " ما المسئول عنها بأعلم من السائل ". (1) ولكن هناك أمارات للساعة وعلامات كثيرة حددتها الأحاديث والآثار، منها سؤال جبريل للنبي ﷺ " أخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة، رعاة الشاة، يتطاولون في البنيان ". (2)

ومن العلامات التي تظهر بين يدي الساعة، ما أخبر رسول الله ﷺ بأنها سوف تقع بعده، فمنها ما وقع ومنها ما ينتظر أوانه، فقد أخبر ﷺ بأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، ولا تقوم حتى يظهر الفحش والخيانة، ويسقط الأخيار، ويرتفع الفجار.

وقد سلط الحافظ ابن أبي الدنيا الضوء على تلك الأمارات، فأورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش و التفحش، ويخون الأمين ويؤتمن الخائن، وتسقط الوعول، وتعلو التحوت، قالوا يا رسول الله وما الوعول؟ وما التحوت؟ قال: الوعول أشرف الناس ووجوههم، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس ". (3)

ومثله عن أبي الجلد (4) قال " والذي نفس أبي الجلد بيده، ليكون في آخر الزمان قوم مخصبة ألسنتهم، مجدبة قلوبهم، قصيرة آجالهم، (5) رقيقة أخلاقهم، تكاف النساء بالنساء فيعلمون قول الزور لوناً غير لون، فإذا فعلوا ذلك انتظروا النكال من السماء ". (6)

ومن العلامات التي أشار إليها الحافظ ابن أبي الدنيا في بعض مصنفاته، ما رواه عن أبي ثعلب الخشني (1) في قوله الذي يصور خراب الزمان وفساده، حتى يظهر النقص في

(1) رواه مسلم: 1 / 39.

(2) رواه مسلم: 1 / 39.

(3) العقوبات: 218. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 7 / 324.

(4) هو جيلان بن وبرة، من البصرة مشهور بكنيته أبو الجلد. ينظر: حلية الأولياء: 6 / 54.

(5) في الأصل (أحلامهم)

(6) العقوبات: 187.

(1) هو صحابي مشهور بكنيته، اختلف في اسمه واسم أبيه، توفي سنة 75 هـ. وقيل قبل ذلك بكثير. ينظر: تقريب التهذيب: 1 /

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

الحق والخير، ويرتفع الباطل والشر، فقال " أيها الناس، إن من أشرّاط الساعة أن تنقص العقول، وتعزّب⁽²⁾ الأحلام، ويكثر الهم، وتقع علامات الحق، ويظهر الظلم وإن من أشرّاط الساعة أن ترفع الأمانة وترفع الرحمة، ويقطع الرحم، وتقطع الصدقة، ويلجم الناس الشح، فلا تلقى إلا ملجماً، حتى لا يفضل عن مكثره كثرة، ولا يقنع مقلّ بقلته وكل ما عرفاه فقير قلله ".⁽³⁾

وأورد مثله عن أبي العالية⁽⁴⁾ قال " ليأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن، وتبلى كما تبلى ثيابهم، وتهافت لا يجدون له حلاوة، ولا لذّة! إن قصّروا عمّا أمروا به قالوا: إن الله غفور رحيم! وإن عملوا بما نھوا عنه قالوا: سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيء، أمرهم كله طمع، ليس معهم خوف، لبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب! أفضلهم في أنفسهم المداھن ".⁽⁵⁾

فاختياره لمرويّات الساعة وأماراتها، موجه وهادف، كما هو واضح في الترهيب من هولها والتحذير من قرب قيامها.

ويتضح من هذه النصوص المتقدمة ما يلي:

◆ التأكيد على عظيم شأن وقوع الساعة، و هو موافق لجملة النصوص الواردة في ذلك.

◆ التفصيل في ذكر العلامات الصغرى، وخاصة العلامات التي تظهر في سلوكيات الناس، كالخيانة، والأمانة، وتطاول الرعاء في البنيان، وسيادة العبيد، وتصديق الكاذب، وتكذيب الصادق، وغيرها.

◆ إتضح من النصوص إن قيامها من المغيبات الحتمية الوقوع، والواجبة التصديق.

• الثواب:

(2) معنى تعزّب: تغيب - أي يغيب أصحاب الحلم والأناة -.

(3) العقوبات: 223. وكلمة (قلله) في الأصل قبله.

(4) هو رفيع بن مهران الرياحي البصري، أدرك الجاهلية وأسلم بعد موت النبي ﷺ بسنتين. قال أبو بكر ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية. وهو ثقة مجمع على ثقته. توفي 90هـ. ينظر: تهذيب الكمال: 9/ 214.

(5) العقوبات: 217.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

يمكننا القول أن معظم الآثار التي أوردها ابن أبي الدنيا في منزلة الثواب، جاءت تجسد الثواب المعنوي في صورة ثواب حسي. فالثواب أمر معنوي يستحق به المرء الرحمة والمغفرة من الله تعالى، والشفاعة من الرسول ﷺ، (1) وما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله يسمى ثواباً. (2)

فالثواب يقال في الخير، وقد يقال في الشر، ولكن القرآن الكريم غالباً ما يطلق الثواب على أعمال الخير، قال تعالى " فَآتَاهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ". (3) وقال تعالى " وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ". (4) وقال سبحانه " فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ". (5) وغيرها من الآيات التي عني القرآن الكريم بتوضيحها، وإبرازها، في أعمال الخير والصالح.

ولا يتصور أن يعطى الثواب الأخروي بدون عمل، فأشار الحافظ ابن أبي الدنيا في مرويّاته، إلى أن الثواب يختلف من شكلٍ إلى آخر فمرة يكون الثواب عن تنزيه النفس وحفظ الأسماع عن مواطن السوء والشبه، فروى عن محمد ابن المنكدر (6) قال " إذا كان يوم القيامة نادى منادي: أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن مجالس اللهو، ومزامير الشيطان، أسكنوهم بياض المسك، ثم يقول للملائكة، أسمعوهم تمجيدي و تحميدي ". (1)

ومرة أخرى يسلط الضوء على ثواب البكائين من خشية الله، وما أعد الله لهم من الأجر والمثوبة الكبيرة، فروى عن الحسن البصري، قال " بلغنا أن الباكي من خشية الله لا

(1) التعريفات: 53.

(2) مفردات ألفاظ القرآن: 575.

(3) سورة المائدة: الآية 85.

(4) سورة الكهف: الآية 46.

(5) سورة آل عمران: 148.

(6) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التميمي المدني، وذكر إسحاق بن راهويه عن سفيان بن عيينة قال: كان من معادن الصدق، يجتمع إليه الصالحون ولم يدرك أحداً أجدر أن يقبل الناس منه إذا قال: قال رسول الله ﷺ. ينظر: تهذيب الكمال: 503 / 26.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

تقطر من دموعه قطرة على الأرض حتى تعتق رقبتة من النار، ولو أن باكياً في ملاً من الملاً لرحموا جميعاً ببكائه، وليس شيء إلا له وزن، إلا البكاء فإنه لا يوزن". (2)

ومثله أيضاً ما رواه الحافظ عن وهب بن منبه (3) قال " البكاء من خشية الله تعالى مثاقيل، وليس ثوابه وزناً، وإنما يعطى الباكي من خشية الله والصابر على طاعة الله أجرهم بغير حساب ". (4) وتحرم النار على من بكى من خشية الله " عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت في جوف ليلٍ من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس سرية في سبيل الله " (5)

ومرة ثالثة، يكون الثواب في الصبر على المصيبة، والاستئناس بها، والتعزي بالتقوى والصبر، فروى الحافظ، عن الشجاع (6) فقال " لما مثل بالشجاع، صبرت وجعلت تعزي نفسها بالقرآن وتقول: (واصبر وما صبرك إلا بالله)، (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ثم قالت: لئن كنت على بصيرة من أمري إن هذا لقليل في جنب عظيم ما أطلب من ثواب الله. قال فما تكلمت بغير هذا حتى ماتت ". (7)

(1) الورع: 71. في الأصل (ثم تقول الملائكة).

(2) الرقة والبكاء: 18.

(3) هو وهب بن منبه أبو عبد الله الصنعاني، الحبر العلامة، كان شديد العناية بكتب الأولين وأخبار الأمم وقصصهم، بحيث كان يشبه بكعب الأخبار في زمانه. ت: 114هـ. ينظر: تهذيب الكمال: 31/ 140. تقريب التهذيب: 1/ 585.

(4) الرقة والبكاء: 19 وما بعدها.

(5) المصدر نفسه: 11 وما بعدها.

(6) وهي امرأة خارجية، عابدة ورعة زاهدة، لها مكانة عند الخوارج، جيء بها إلى عبيد الله بن زياد بن أبيه، وعرضت عليه حاشيتها تعذيبها... ثم خلا سبيلها. ينظر: أعلام النساء، عمر رضا كحالة: 2/ 285.

(7) الصبر: 97.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

ومثله ما أنشده الحسين بن عبد الرحمن: (1)

تَعَزَّ إِذَا أَصَبَتْ بِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ التَّقْوَى أَمْرٌ بِهِ مُصَابٌ
فَكُلُّ مَصِيبَةٍ مَظْلَمَةٌ وَجَلَّتْ تَخَفُّ إِذَا رَجَوْتَ لَهَا ثَوَاباً (2)

ففي إشارات الحافظ لمرويات الثواب، أجل العظة والعبرة، قال تعالى " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ " (3)

ويتضح من مرويات ابن أبي الدنيا في الثواب ما يلي:

- ◆ أشار إلى بعض الأعمال والسلوكيات، التي يترتب عليها الثواب، كالبكاء من خشية الله، والصبر عن معصية الله تعالى، والتنزه عن سماع بعض الملهيات.
- ◆ أشار إلى تعدد أنواع الثواب، سواء كان بالإيجاب، كنعيم الجنة، أو بالسلب، كعدم إذاقة العذاب وألوانه.

• العقاب:

ليس غرضنا الكشف عن حقيقة العقاب عند ابن أبي الدنيا، بقدر ما نريد أن نبين أنواع تلك العقوبات المناسبة للأفعال السيئة فيها، وإبرازها للنفس لا يخلو من فائدة الاعتبار والاتعاظ والتذكر.

والعقاب يختص بفعل الشر، فهو جزاء بالعذاب، قال تعالى " فَحَقَّ عِقَابٌ " (4) والجزاء إذا أطلق في معرض العقوبات يراد به ما يجب حقاً لله تعالى بمقابلة فعل العبد، لأنه المجازي على الإطلاق، ولهذا سميت الدار الآخرة دار الجزاء. (5)

ولأهمية هذا الجانب وأثره في حياة الناس اهتم به الحافظ ابن أبي الدنيا، فأفرد له مصنفاً مستقلاً هو (العقوبات) حذر فيه الأمة الإسلامية من التهاون بالأوامر الإلهية، حتى لا يصيبها ما أصاب الأمم السابقة، من الهلاك والعذاب. فالعقوبات الإلهية حق،

(1) هو الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي ويسمى الحسن. وحديثه متروك لأنه عرف بالتخليط. ينظر: لسان الميزان، ابن حجر: 2/ 294

(2) الصبر: 110.

(3) سورة ق: الآية 37.

(4) سورة ص: الآية 14.

(5) ينظر: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي: 654 .

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

والاعتبار بذكرها درس كبير لكل مسلم عاقل، ومتذكر خاشع، يعرف هذه العقوبات فيتجنب أسبابها، ويخشى غضب الله وسخطه، فيدعو الله السلامة من الآثام وعقوباتها والويل لمن استهزأ بها.

والحافظ ابن أبي الدنيا يطلعنا على أنواع العقوبات التي حلت بالأفراد، وأصابت الجماعات، أو سلطت على الأمم، فأورد لعقوبة الأفراد عدة روايات تتحدث عن عقوبات شديدة، ومناسبة نتيجة طغيانهم وخروجهم عن فطرة الله وشرعه، فقال " إن رجلاً من غفار يقال له جهجاه، أو جهجا الغفاري، دخل على عثمان رضي الله عنه فانتزع عصاً كانت في يده، فكسرها على ركبته، فوقعت الآكلة في ركبته ". (1) ومثله عن يزيد بن أبي حبيب (2) قال " بلغني أن عامة النفر الذين ساروا إلى عثمان رضي الله عنه جنوا، قال ابن المبارك الجنون لهم قليل ". (3)

ومن ذلك أيضاً ما حل بالمرأة المدنية، التي اشتعل قبرها ناراً، بسبب تجسسها على جيرانها، وتأخيرها لصلاتها، وقد بين الله تعالى أن المرء ليس متروكاً سداً، ولا ذاهباً بلا حساب ولا جزاء، فقال سبحانه " أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ". (4) فأورد الحافظ عن عمرو بن دينار، قال " كان رجل من أهل المدينة له أخت في باحة المدينة، فهلكت، وأتى السوق يجهزها، ولقيه رجل معه كيس فيه دنانير، فجعله في حجره فلما دفنها ورجع إلى منزله ذكر الكيس في القبر، فاستعان برجلٍ من أصحابه، فنبشاً، فوجدا الكيس، فقال لصاحبه تنح حتى لا تنكشف (5) على الرجال أختي، فرفع ما على اللحد، وإذا القبر يشتعل ناراً، فردّه ودعا الرجل فسوى معه القبر، ثم رجع إلى أمه، فقال: أخبريني، ما حال أختي ؟ قال: وما تسأل عنها ؟ السر قد مات، قال: أخبريني قالت: كانت أختك تؤخر

(1) العقوبات : 212 . وكان ذلك يوم مقتل عثمان رضي الله عنه فعاقب الله تعالى جهجاه من جنس عمله بالآكلة، وهي: الحجة.
(2) هو يزيد بن أبي حبيب واسمه سويد الأزدي المصري أبو رجاء، كان مفتي أهل مصر في أيامه، وكان حليماً عاقلاً، وكان أول من أظهر العلم في مصر. قال الليث بن سعد: هو سيدنا وعالمنا. ت128هـ. ينظر: تهذيب الكمال: 32/ 102.
(3) العقوبات: 212.
(4) سورة القيامة: الآية 36.
(5) لا توجد في النص هذه الكلمة، وأكملناه ملائمة للمعنى.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

الصلاة، ولا تصلي فيما كتب بالوضوء، وتأتي أبواب الجيران إذا ناموا، فتلقم إذنها أبوابهم، فتخرج حديثهم". (1)

ومن عقوبات الأفراد أيضاً أورد عقوبة تتعلق بعقوق الوالدين، وهي عقوبة معجلة في الدنيا قبل الآخرة، إذ "كل الذنوب يؤخر الله ما يشاء منها إلى يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين، فإن الله تعالى يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات". (2) فروى الحافظ عن أبي إسحاق الفزاري (3) أنه قال لعبد الله بن المبارك "يا أبا عبد الرحمن، كان رجل من أصحابنا جمع من العلم أكثر مما جمعت وجمعت، فاحتضر فشهدته، فقلت له: قل لا إله الله. فيقول لا أستطيع أن أقولها، ثم تكلم، فيتكلم قال ذلك مرتين، فلم يزل على ذلك حتى مات ! قال فسألت عنه، فقيل: كان عاقاً لوالديه، فظننت أن الذي حرم كلمة الإخلاص بعقوقه لوالديه". (4)

ومن العقوبات الإلهية المفاجئة التي أصابت الجماعات المرتكبة للذنوب، أورد حديثاً بين فيه أثر الذنب السيئ في كيان الجماعات، فهذه سنة الله تعالى في كل جماعة خرجت عن حدود الله وأوامره، قال تعالى "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ". (5) والخارج عن أوامر الله عز وجل، ينال جزائه المناسب من العقوبات، فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال، قال رسول الله ﷺ "ما طفف قومٌ كيلاً، ولا بنحسوا ميزاناً، إلا منعهم الله القطر، وما ظهر في قوم زنا إلا ظهر فيه الموت، وما ظهر في قوم الربا، إلا سلط الله عليهم الجنون، وما ظهر في قوم القتل، فقتل بعضهم بعضاً، إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما ظهر في قوم عمل قوم لوط، إلا وظهر فيهم

(1) الورع: 72.

(2) رواه الحاكم في المستدرک: 4/ 172. الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(3) هو إبراهيم بن محمد بن الحارث الإمام، ثقة حافظ له تصانيف، نزل الشام وسكن المصيصة. ت 185هـ. ينظر: تهذيب الكمال: 2/ 167.

(4) المختصرين: 176.

(5) سورة هود: الآية 102.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

الخسف، وما ترك قومٌ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا لم ترفع أعمالهم، ولم يسمع دعاؤهم". (1)

وأما عقوبات الأمم السابقة، فقد أورد فيها مرويات كثيرة، تهديداً ووعيداً لأقوام لا يعتبرون، وتحذيراً وتنبيهاً لعباد الله المؤمنين من أن يتهاونوا في أوامره سبحانه فيصييهم ما أصاب تلك الأمم، فأورد في ذلك قصة بني إسرائيل في مسألة التهاون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستساعة المنكر، حتى جالسوا العاصين وواكلوهم، وشاربوهم، وكأنهم لم يرتكبوا خطيئة، فروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة نهاه الناهي تعزيراً، فإذا كان الغد جالساً وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله تبارك وتعالى ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفس محمد بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو لتأخذن على يد السفية، فلتاظرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله عز وجل بقلوب بعضهم من بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم". (2)

والمفاصلة والمقاطعة، و إعلان البراءة من المخالفين وأعمالهم في حالة اليأس من استجابتهم واجبة ضرورية، لأن استمرار مخالطة العاصين عند اصرارهم على المعصية يؤدي إلى شمول الناهين بالعذاب والهلاك مع العصاة. فأورد الحافظ في ذلك قصة (3) مسخ اليهود قروداً وخنازيراً، نتيجة إغراضهم عن طاعة الله وتركهم نصيحة صلحائهم، فروى عن عطاء بن السائب (4) قال "كنت جالساً في المسجد فإذا شيخ قد جاء، فجلس وجلس إليه الناس، فقالوا: هذا من أصحاب عبد الله بن مسعود، فقال: سمعت عبد الله في قوله عز وجل: (وسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ... إلى نهاية كانوا يفسقون) قال لما

(1) العقوبات: 39.

(2) العقوبات: 26. لم أتمكن من تخريجه، وخرجه محقق كتاب العقوبات. قال محقق كتاب المعجم الكبير للطبراني: الحديث منقطع، إذ أبو عبيدة لم يسمع عن أبيه عبد الله بن مسعود.

(3) ينظر القصة مفصلة في سورتي: البقرة الآية 65، والأعراف الآية 163-166.

(4) هو عطاء بن السائب أبو محمد، ويقال أبو السائب الثقفي الكوفي، صدوق اختلط، ت 136هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 1/

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

حرم الله عز وجل عليهم السبت، كانت الحيتان تأمن يوم السبت، فتجيء لا يستطيعون أن يمسخوها، فكان إذا ذهب يوم السبت ذهبت، فكانوا يتصيدون كما يتصيد الناس، فلما أرادوا أن يعتدوا في السبت اصطادوا فيه، فنهاهم قومٌ من صلحائهم فأبوا، وكأثرهم الفجار، فأراد الفجار قتالهم، وكان فيهم من لا يشتهدون قتلهم، أبو أحدهم، أو أخوه، أو ذو قرابته. فلما نهوهم أبوا، قال الصالحون: إذا أئتمم فإننا نجعل بيننا وبينكم حائطاً، قال: ففعلوا، فلما فقدوا أصواتهم قال بعضهم لبعض: لو نظرتم إلى إخوانكم ما فعلوا؟ فنظروا، فإذا هم قد مسخوا قروداً، فكانوا يعرفون الكبير بكبره، والصغير بصغره، فجعلوا يكون إليهم، هذا بعد موسى عليه السلام⁽¹⁾. وأورد مثله عن ابن مسعود رضي الله عنه أيضاً "أنهم سألو رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أمن نسل اليهود هي؟ فقال رسول الله ﷺ إن الله عز وجل لم يلعن قوماً فمسخهم فكان لهم نسل حتى يهلكهم، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله عز وجل على اليهود مسخهم، فكانوا مثلهم"⁽²⁾.

فالنهي البائسة والعذاب الشديد، مصير من خرج عن طاعة الله تعالى وأوامره، ولم يقف عند حدوده بالإنذار والتحذير، قال تعالى "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ"⁽³⁾. هذه هي النهاية المشؤمة للذي يظلم ويفجر، ويعتدي، من أجل متاع الأرض الزائل، ومن خلال ما تقدم يتلخص ما يلي:

- ◆ أنه ذكر العقوبات بألوان متعددة، لون خاص بعقوبات الأفراد من الناس، ولون خاص بعقوبة الجماعات والأمم.
- ◆ أشار إلى سوء أفعال اليهود على مر التاريخ، وإن أسلافهم قد ظهرت منهم قبائح كثيرة، استحققت عقاباً تفردت به بين الأمم، وهو مسخهم قروود وخنازير.
- ◆ يستنتج من ذلك أن ابن أبي الدنيا قد اهتم بموضوع العقوبات، والدليل على ذلك أنه أفرد له مصنفاً بهذا العنوان، مما يشير إلى أهمية موضوع العقوبات في درس الرقائق عند أبي الدنيا.

(1) العقوبات: 154.

(2) المصدر نفسه: 157. رواه الطبراني في المعجم الكبير: 106/10، وقال محققه: أنه ضعيف.

(3) سورة الزخرف: الآية 76.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

- **الجنة والنار⁽¹⁾:** إن أغلب ما يسيطر على مرويات الرقائق في مصنفات الحافظ ابن أبي الدنيا ذكر الجنة والنار، وذكر أهلها، فالنعيم المقيم ثواب المؤمنين الطائعين، والعذاب الأليم جزاء الكافرين العاصين. ولوفرة المرويات في هذا الموضوع الغيبي عكف ابن أبي الدنيا على جمعها بسنده، فأفرد لهما كتابين مستقلين هما صفة الجنة وما أعد الله لأهلها من نعيم، وصفة النار.
- **الجنة:**

إن الجنة أعظم مرغوب عند المؤمنين فهم على ثقة بما وعدهم ربهم في كتابه العزيز "وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ" (2) وقد جاء ذكرها مبسوطاً في مواضع عدة من القرآن الكريم، ثم جمع نعيمها في آيات منها: قوله تعالى " وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ " (3) وقوله تعالى " فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ " (4).

إن صفة الجنة والترغيب فيها وبيان الطريق إليها والتعريف بنعيمها، من أهم الموضوعات الغيبية في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وقد كان ابن أبي الدنيا موفقاً في اختيار الوصف الذي يجلي المفردات التي ذكرت في الجنة لما فيه الوضوح والتفصيل لكونه يرغب أن يكون الكلام مفهوم عند العامة وجمهور من يستمعون إلى المواعظ، مثال ذلك ما ذكره ابن أبي الدنيا عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ " ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها. هي ورب الكعبة نورٌ يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة ومقام أبداً في دارٍ سليمة،

(1) من الجدير بالذكر، أن مصنفات ابن أبي الدنيا من أهم مصادر أبي العلاء المعري في رسالته الغفران، فقد أخذ مقتبسات كثيرة منها، ولا سيما كتابيه صفة الجنة وصفة النار، فقد اعتمدهما كثيراً في رسالته. ينظر: رسالة الغفران:

(2) سورة التوبة: الآية 72.

(3) سورة الزخرف: الآية 71.

(4) سورة السجدة: الآية 17.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وفاكهة وخضرة، وحبيرة ونعمة، في محلة عالية بهية: قالوا نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، فقال: قولوا إن شاء الله، فقال القوم: إن شاء الله". (1)

وطبيعة هذه " الصورة لا يدركها البشر إلا في حدود ما يعهدون في الأرض. فإذا كانوا هنالك، كانت لهم أذواق ومفاهيم تناسب تصورهم الطليق من جو الأرض المحدود! ". (2) فالجنة أعد الله فيها لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والحافظ ابن أبي الدنيا قد أغنى مروياته في وصف الجنة أيما إغناء، فعن سعة أبوابها روى حديثاً للنبي ﷺ جاء فيه " ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف متماسكون، أخذ بعضهم بعضاً، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على ضوء صورة القمر ليلة البدر ". (3) وأورد مثله عن رسول الله ﷺ قال " باب أمتي الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب ثلاثاً، ثم إنهم ليضغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تنزل ". (4) ومثله أيضاً عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال في خطبته " لقد ذكر لي أن ما بين مصراعين من مصاريع أهل الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام ". (5)

فسعة أبواب الجنة من سعة رحمته، وكرمه الفياض على أمة الإسلام، قال تعالى " وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ". (6)

ومظاهر النعيم في الجنة يتيه الخيال في تصورها، فعن طعام أهلها وشرابهم ولباسهم أورد الحافظ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال " جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، أفني الجنة فاكهة؟ قال: فيها فاكهة ونخل ورمان قالوا له: أفياكلون منها كما يأكلون في

(1) صفة الجنة: 11. الحديث قال عنه البوصيري في مصباح الزجاجة: 4 / 265: هذا إسناد فيه مقال.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب: 8 / 507.

(3) صفة الجنة: 75. الحديث رواه البخاري: 5 / 2399.

(4) المصدر نفسه: 72، أخرجه الترمذي: 684/4. وقال: هذا حديث غريب.

(5) المصدر نفسه: 72.

(6) سورة آل عمران: الآية 133.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

الدنيا ؟ قال: نعم وأضعافاً. قالوا: أفيقضون الحوائج؟ قال: لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب الله عز وجل ما في بطونهم من أذى". (1)

ومثله عن بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " إنك تنظر إلى الطير يطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً". (2)

ومثله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال " أهدى أكيدر بن دومة إلى النبي ﷺ جبة من سندس فتعجب الناس من حسننها، فقال النبي ﷺ لمناديل سعد في الجنة أحسن منها". (3)

ولم تكن مرويات الحافظ في صفة الجنة مقصورة على الشراب والطعام واللباس، وإنما أشار إلى جانب مهم فيها ألا وهو ما أعده الله من جزاء وثواب يناسب ما يقوم به المرء من أعمال عبادية، أو أخلاقية، أو سلوكية، فعرض الأعمال التي ثوابها الجنة، وجزاءها النعيم الدائم، فعن منزلة المجاهدين وما أعد الله لهم من ثواب عظيم، أورد ما يرغب في ذلك عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " مائة درجة في الجنة ما بين الدرجتين ما بين السماء والأرض وأبعد مما بين السماء والأرض، قلت يا رسول الله: لمن ؟ قال: للمجاهدين في سبيل الله عز وجل". (4)

وفي إغاثة الملهوف وتفريج كربته، وإدخال السرور عليه، أورد في ذلك عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة، واحدة منها صلاح أمره كله، واثنان وسبعون له درجات يوم القيامة". (5)

وفي مكارم الأخلاق والفضائل، كالصدق والوفاء والأمانة، وحفظ الجوارح أورد في ذلك عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " أضمنوا لي ستاً من أنفسكم

(1) صفة الجنة: 46. في سنده حصين بن عمر الأحمسي، قال البخاري منكر الحديث، وضعفه أحمد وقال ابن معين ليس بشيء وقال أبو حاتم وإدراجاً وأقبحه بعضهم وقال ابن عدي عامة أحاديثه معاضيل، ينفرد عن كل من روى عنه، ينظر: ميزان الاعتدال: 2/ 312.

(2) صفة الجنة: 46. أورد الهيثمي في مجمع الزوائد: 10/ 414. وعزاه للبزار وقال فيه حميد بن عطاء الأعرج وهو ضعيف.

(3) صفة الجنة: 57. الحديث رواه البخاري: 5/ 2195.

(4) المصدر نفسه 65. الحديث رواه مسلم: 5/ 1501.

(5) قضاء الحوائج: 41، قال الشيخ الألباني: الحديث ضعيف. ينظر سلسلة الأحاديث الضعيفة: 621، 750.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

أضمن لكم الجنة ، أصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ". (1)

وأبواب الجنة متعددة، باب الصائمين و باب المصلين و باب المجاهدين و باب المنفقين و باب الواصلين، فمن يمر بخزنة الجنة نودي أن هلم إلينا، فإذا كان من أهل الصلاة نودي من باب المصلين، وإذا كان من أهل الصيام نودي من باب الصائمين، وقد يدعى منها كلها، فأورد في ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله عز وجل نودي في الجنة: يا عبد الله هذا خير. فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان. قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، هل على أحد من ضرورة من أيها دعي؟ وهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، وإني لأرجو أن تكون منهم ". (2)

وذكر الجنة ونعيمها الدائم قد صورتها مرويات كثيرة، ذكرها الحافظ ابن أبي الدنيا في كتابه صفة الجنة، فأهل الجنة في هذا النعيم ناعموا النفوس والأجسام، تفيض النضرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل راء قال تعالى " إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ". (3)

(1) الصمت وآداب اللسان: 471. الحديث أورده الهيتمي في مجمع الزوائد: 4 / 145. وقال رواه أحمد والطبراني في الأوسط

ورجاله ثقات إلا أن المطلب لم يسمع من عبادة.

(2) صفة الجنة: 73. الحديث رواه البخاري: 2 / 671.

(3) سورة المطففين: الآيات 22-24.

• النار:

ويقابل الجنة ونعيمها، جهنم وسعيرها، فجهنم هي موضع النار يوم القيامة، وعبر عنها بجهنم لأنها اسم من أسمائها، وهناك أسماء أخرى لها دالة على العذاب والإحراق، كالسعير واللظى، وقد تنوعت ألوان العذاب في جهنم وتغايرت في حقيقتها ومضمونها، فمنها الضرب بالمقامع من حديد والبرد الشديد، والحر الشديد، والعطش الذي يقطع أمعائهم وأكبادهم، وثقل السلاسل وهي محاطة بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ولها سبعة أبواب كما للجنة ثمانية أبواب، وخزنتها تسعة عشر ملكاً من الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرهم وزعيمهم مالك، ولها دركات مثل ما للجنة درجات، ونار وقودها الناس والحجارة، فنيرائها ترتفع إلى ما يشبه السرادقات الضخمة في ألوانها وحركاتها. قال تعالى " إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٢﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَثُورُونَ " (١) وقال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " (٢) وتتضح أجزاء هذه الصورة القرآنية، إذ " تصل إلى أسمعنا صيحة يبدوا أنها لآتية من بعيد، ومن خلف الأبواب الموصدة في الجحيم. إنهم ينادون مالك خازن النار ليدعوا ربه فيمن عليهم لا بالنجاة من العذاب فهم يائسون، ولا بتخفيفه عنهم فهم فيه مبلسون ولكن بالهلاك السريع الذي يريح! ونادوا يا مالك ليقضي علينا ربك، فالموت هنا أمنية عظيمة " (٣)

والتعوذ من النار وهولها مندوب، ونسيانها يعد غفلة فأورد ابن أبي الدنيا عن عبد الأعلى (١) قال " ما جلس قوم مجلساً فلم يذكروا الجنة والنار إلا قالت الملائكة: أغفلوا

(١) سورة الزخرف: الآيات 74-77.

(٢) سورة التحريم: الآية 6.

(٣) مشاهد القيامة في القرآن: 154.

(١) هو عبد الأعلى التميمي ذو الخشوع والدموع، وصفه أبو نعيم فقال: باطنه خاشع وحاضره سامع وناظره داعم. ينظر: حلية الأولياء: 5/ 88.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

العظيمتين". (2) وأورد أن النبي ﷺ ذكر النار في صلاة غي مكتوبة، فقال " تعوذوا بالله من النار، ويل لأهل النار ". (3)

وينقلنا الإمام ابن أبي الدنيا من خلال مروياته الكثيرة في وصف جهنم وما فيها من عذاب إلى مرأى ومسمع من مشاهدها، فيضعنا أمام مشهد مروع من مشاهد النار تضطرب له القلوب وتتشعر له الجلود، ونكاد نحس به دون أن تلمسنا النار. فقد ذكر أن زمرة من العصاة الأشقياء يصب الحميم على رؤوسهم - الماء المغلي - فتظهر بحرارته أحشاؤهم ويسلب ما في جوفهم إلى أن تخرق أقدامهم ثم يعيدهم من جديد. فأورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال " إن الحميم يصب على رؤوسهم، فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلب ما في جوفه حتى يخرق قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان ". (4)

ونقف عند مشهد ثان، وإذا بزمرة أخرى من الأشقياء صورتهم صورة الرجال وأجسامهم بحجم الذر، من الإهانة والصغار والذل شراهم ما يسيل من جلود أهل النار - فالجزاء من جنس العمل - فأورد حديثاً عن رسول الله ﷺ قال " يحشر المتكبرون يوم القيامة ذراً في مثل صور الرجال، يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طين الخبال، عصارة أهل النار ". (5)

وأورد صورة أخرى لرجل هو أدنى أهل النار عذاباً، له نعلان يغلي منه دماغه فعن مجاهد⁽¹⁾ قال " إن أهون أهل النار عذاباً رجل له نعلان وشركان من نار، أضراسه جمر، مسامعه جمر، واشفار عينيه من لهب النار، تخرج أحشاؤه من قدميه وسائرهم كالحب القليل في الماء الكثير وهي تفور " (2)

(2) صفة النار: 16.

(3) المصدر نفسه: 14. الحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير: 79 / 7.

(4) صفة النار: 60. الحديث رواه الترمذي: 4 / 705. وقال حديث حسن صحيح غريب.

(5) المصدر نفسه: 45. الحديث رواه الترمذي بألفاظ متقاربة: 4 / 655. وقال حديث حسن صحيح.

(1) هو مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج، ثقة إمام في التفسير وفي العلم. ت 101 هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 520/1.

(2) صفة النار: 89.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

وتتغير صورة العذاب في مشهد ثالث، ونكاد نحس بالألم من شدة العذاب الحسي، وإذا بزمرة من الأشقياء يسلط عليهم الجرب، فتبرز عظامهم من حكهها، فعن مجاهد قال " يلقي على أهل النار الجرب، فيحتكون حتى تبدوا العظام، فيقولون: ربنا بما أصابنا هذا؟ قال: بأذاكم المؤمنين ".⁽³⁾

وينقلنا إلى مشهد رابع مروع ومخيف، تتغير فيه صورة العذاب، ففي هذه المرة، أهل النار بعضهم يؤذي بعضاً بما نزل فيهم من العذاب، فروى عن رسول الله ﷺ " أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم، يدعون بالويل والثبور، يقول أهل النار بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى؟ قال: فرجل مغلق عليه تابوت من جمر، ورجل يجر أمعاءه، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً، ورجل يأكل لحمه، قال: يقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ قال: فيقول: إن الأبعد مات وفي عنقه أموال الناس، ولم يجد لها قضاء.

قال: ويقال للذي يجر أمعاءه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ قال: فيقول: إن الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول منه ثم لا يغسله.

ثم يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ قال: فيقول: إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قدعة خبيثة، يستلذها كما يستلذ الرفث. ثم يقال للذي يأكل لحمه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إن الأبعد كان يأكل لحم الناس بالغيب، ويمشي بالنميمة ".⁽¹⁾

وأوصاف جهنم هذه، ما هي إلا تقريب لتصورنا، وإلا فإننا لا ندرك طبيعة العذاب الأخروي " وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة، إنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى ما يملك تصويره من الألم الذي يجتمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية، ومن البرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة، والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه، وهو شوك لا نفع فيه ولا غناء.

(3) المصدر نفسه: 88. وللمزيد من ذلك ينظر ما جاء في باب ألوان العذاب: 86.

(1) صفة النار: 143. الحديث أورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب: 86/1، قال: رواه ابن أبي الدنيا والطبراني بإسناد لين.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

. . من مجموعة هذه التصورات يجتمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم. وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد. وطبيعته لا يتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله "(2)

وإتضح من خلال مرويّاته في الجنة والنار أنه يختار العبارة السلسلة الواضحة والتي تفهم المتلقي صورة منقولة من الخيال والغيب إلى الإحساس والشعور. فقد نقلت لنا مرويّات ابن أبي الدنيا أوصاف الجنة من الغيب إلى الإحساس والإلتذاذ بنعيمها. والنار أيضاً نقلت لنا من الغيب إلى الإحساس وتصور الألم والإلتساع بسعيرها. مما يثير في النفس الرغبة في الجنة والرغبة من النار.

✧ المبحث الثاني: الأخلاق.

لاشك أن الأخلاق هي الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم، لهذا حدد رسول الله ﷺ الغاية الأولى من بعثته بقوله " بعثت لأتمم صالح الأخلاق " (1) فكأن الرسالة التي بذل صاحبها جهداً كبيراً في مد شعاعها وجمع الناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى يسعوا إليها على بصيرة. من أجل ذلك جاءت رسالة نبينا للحث على معاني الأخلاق الإسلامية الفاضلة، وجاء القرآن الكريم مشدداً على الاستمساك بها، لأنها هي التي تحقق الفوز والفلاح الأخروي.

والحافظ ابن أبي الدنيا قد عرض جانب التربية الأخلاقية على أنه توجيه إلهي، يطالب المسلم بالتزامه ويعتبر مقصراً في حق الله حين يعرض عنه، وقد تضمنت مرويآته في الأخلاق صورة الواقع الذي كان يعيشه المجتمع الإسلامي، مع محاولة لعلاج ما انتاب المسلمين في تلك العصور من انحراف وهبوط، نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل، ولذلك فإن ابن أبي الدنيا لم تأت فكرة مرويآته الأخلاقية من فراغ، وإنما جاءت ضرورة ملحة تقتضيها أجواء المجتمع الإسلامي.

وأراد الحافظ ابن أبي الدنيا أن يقعد لأسس الأخلاق والسلوك الإسلامي في عصر الفتن والحن، واستطاع بنظريته التربوية الأخلاقية أن يوجه أبناء عصره لتأسيس مجتمع الفضيلة والسلامة والعلم. فسجل خلاصة ما سطرته الأجيال السابقة من المربين والعلماء والدعاة، وهو يعلم أن هؤلاء الأخيار لم يقولوا كلامهم اعتباطاً، بل كانت تأملاتهم قائمة على ملاحظة وتفحص لمسيرة عصرهم وجيلهم، فقدموا له خلاصة تجاربهم وأفكارهم.

(1) مكارم الأخلاق: 20. الحديث أورده الحاكم في المستدرک بلفظ " إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق ".

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويآ ابن أبي الدنيا ﴾

وبين لهم أخلاق السلف وما كانوا عليه من إخوة، وود، ومحبة، وزهد، وورع ومدارة للناس، ومعاملتهم بالقول الحسن، وسد أبواب المرء والجدل على أنفسهم، فكان فعلهم يسبق قولهم، وكان صلاح ألسنتهم وحالهم من صلاح قلوبهم.

وتعد مرويآ الحافظ وثيقة نفيسة لما عليه حال السلف إذ هي ذات قيمة شرعية وتربوية، باعتبارها الترجمة الحية لأخلاق السلف الصالح وآدابهم، وأثر مهم من آثار انطباعهم بالتوجيهات النبوية، وتمثلهم بها في سلوكهم وحياتهم، وقيمة علمية باعتبار أن هذه الآثار من أقدم ما وجد، ونظرا لأنها جميعا مسندة، وأن ناقلها إمام ثقة صدوق فإنها تعد وثيقة نفيسة لما كان عليه السلف الصالح من صحابة وتابعين وتابعيهم، من ورع وصلاح ووقوف عند حدود الله تعالى.⁽¹⁾

وأول ما توجهت إليه عناية الحافظ ابن أبي الدنيا في إصلاح المجتمع ومعالجة علله الأخلاقية، أنه تناول في مرويآته مبادئ الإسلام الأخلاقية، مبتدئاً بعرض الفضائل، كالحياء، والصدق، والحلم والصفح، والكرم والجود، والأمانة. التي حث الإسلام عليها، ثم عرض الرذائل⁽²⁾ التي نهى عنها، كالكذب، والغيبة، والنميمة، والغضب، والبخل والخيانة، وغيرها.

● الحياء:

لاشك أن الحياء من أسمى منازل الإسلام، والحياء أبرز ما يتميز به الإسلام من الفضائل، ومعناه الكف عن كل مستقبح لا يرضى به الخالق والمخلوق، وهو خلق شريف به يعيش المرء بخير، قال الحافظ ابن أبي الدنيا: سمعت إعرابيا ينشد:

فلا وأبيلك ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحبها بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء⁽³⁾

(1) ينظر: مقدمة الصمت وآداب اللسان: 125.

(2) لم نتعرض لذكر الرذائل لأننا أشرنا إليها ضمناً في فضائل الأخلاق ومكارمها.

(3) مكارم الأخلاق: 84.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مروياء ابن أبي الدنيا ﴾

والحياء خلق الإسلام، فأورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله "إن لأهل كل دين خلقاً، وإن خلق الإسلام الحياء". (1)

والحياء من خلق الرسول صلّى الله عليه وآله فهو أرق الناس قلباً وخيرهم معاملة وأحسنهم سيرة، فأورد الحافظ ابن أبي الدنيا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال "كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه". (2)

والحياء من أقوى البواعث على الاتصاف بالحسن واجتناب القبيح، فرأس مكارم الأخلاق الحياء، وهو لا يأتي إلا بخير، فإذا تخلق به المرء سارع إلى صالح الأخلاق، وابتعد عن رذائل الصفات وسفا سفها، فأورد عن عائشة رضي الله عنها قالت "قالوا يا رسول الله: إن حارثه بن النعمان أفسده الحياء، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يفسد الحياء، ولكن لو قلتم أصلحه الحياء لصدقتم". (3)

إن الإيمان صلة كريمة بين العبد وربه، وأثره الأول تزكية النفس، وتقويم الخلق، ولا يتم ذلك إلا إذا تحلى المرء بأخلاق النبوة والرسالة، فإذا تجرد عنه وقع في الكبائر دون تورع، وأسرف في الصغائر دون خوف، وخلع رقة الإيمان والدين من ذمته، وعرض نفسه للغيبة، فروى الحافظ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله "من ألقى جلباب الحياء من رقبته فلا غيبة له". (4)

وأورد الحافظ مثله عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول "من لم يكن له حياء فلا دين له، ومن لم يكن له حياء في الدنيا لم يدخل الجنة". (5)

وإذا فقد المرء حياءه تدرج من سيء إلى أسوأ، وهوى من رذيلة إلى أرذل، ولم يزل ينحدر بالسقوط حتى يستقر في الدرك الأسفل، يبتدئ بضيايع الحياء وينتهي بالمقت،

(1) مكارم الأخلاق: 85. الحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير بلفظ "إن خلق الإسلام الحياء" 10 / 320.

(2) المصدر نفسه: 72. الحديث رواه البخاري: 3 / 1306.

(3) المصدر نفسه: 69.

(4) المصدر نفسه: 87. الحديث رواه البيهقي في السنن الكبرى: 10 / 210. وقال هذا ليس بالقوي.

(5) المصدر نفسه: 87. الحديث أورد الديلمي في الفردوس: 3 / 628.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

فأورد في ذلك أثراً جاء فيه " إذا أراد الله بعبدٍ هلاكاً نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقبلاً ممقّلاً " (1).

ويستحب الحياء في الكلام (2) إذ يتطلب من المسلم أن يطهر فمه من الفحش والتفحش، وأن ينزه لسانه عن عيوب الناس، وأن ينجل من ذكر العورات والسوءات فإن من سوء الأدب أن يتلفظ المرء بالألفاظ البذيئة غير عابئ بمواقعها وآثارها، فأورد الحافظ عن الأحنف بن قيس قال " أولاً أخبركم بأدواء الداء؟ اللسان البذيء والخلق الديء " (3) ومن الحياء أن يقتصد المرء في تحدّته في المجالس، فلا يتشدد بكلامه، ولا يتكلف فيه بالسجع والتصنع، فأورد الحافظ حديثاً عن نبي الله ﷺ قال " يأتي الناس زمانٌ يتخللون فيه الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقر الكلاً بالسنتها " (4).

وقد أورد الحافظ مرويّات جمّة (5) يحذر فيها من تلك العلل الخلقية، والتي كان الحياء علاجها الشافي لو استمسكوا به، ففيه الرفعة والفلاح. فأورد الحافظ عن الحسن البصري قال " الحياء والتكرم خصلتان من خصال الخير، لم يكونا في عبد إلا رفعه الله بهما " (1) وأورد مثله عن كعب (2) قال " لم يكن الحياء في رجل قط فتطمعه النار أبداً " (3).

(1) المصدر نفسه: 95.

(2) أحببت أن أبين أيهما أفضل: الكلام أم الصمت. فإن حفظ اللسان ولزوم الصمت أفضل من الكلام، قال تعالى " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " سورة ق: الآية 18. والذي يدل على فضل الصمت أن الكلام على أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض ولا بد من السكوت عنه، وقسم فيه ضرر ومنفعة وهذا لا بد من السكوت عنه أيضاً لأنك لا تحترز من الضرر وقسم لا منفعة فيه ولا ضرر، فهو فضول والاشتغال به تضيق للوقت والعمر، ولم يبق إلا القسم الرابع، وكما جاء في الحديث " من صمت نجاً " أي عن النطق بالشر، قال النووي في الأذكار: 294. " اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه بل هذا كثير أو غالب في العادة ".

(3) الصمت وآداب اللسان: 410. و الأحنف بن قيس هو: أبو بحر يضرب به المثل في الحلم، مخضرم ثقة. قيل توفي 67هـ. وقيل 72هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 96 / 1.

(4) المصدر نفسه: 289. الحديث رواه الترمذي: 5 / 141. عن عبد الله بن عمر وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وفي الباب عن سعد.

(5) للمزيد ينظر: باب ذم النقر في الكلام: 287. من كتاب الصمت وآداب اللسان.

(1) مكارم الأخلاق: 92.

(2) كعب هو: كعب بن ماته الحميري أبو إسحاق، ثقة مخضرم، معروف بكعب الأخبار. ينظر: تقريب التهذيب: 1 / 461.

(3) مكارم الأخلاق: 92.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وإذا سقط ماء الحياء من الوجه فلا يبالي ذلك الإنسان بالشتيم والسخط والضرر، وارتكاب المحظورات، فأورد الحافظ عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، إن لم تستح فاصنع ما شئت ". (4) وأورد مثله في ما قال بعض العرب:

إني لأستُرُّ ما ذو العقل سائرُهُ من حاجةٍ وأُميتُ السرَّ كتماننا
وحاجة دون أخرى قد سمعتُ بها جعلتها للتي أخفيتُ عنوانا
إني كَأَنِّي أرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم مُرويانا (5)

نلاحظ في النصوص التي انتقاها ابن أبي الدنيا في مرويّاته في ما يخص الحياء أنه عالج موضوعه - الحياء - معالجة تامة رصينة، كشف لنا من وراءه الحجب عن ما يتضمنه الحياء كخلق، فاختار نصاً صور الحياء فيه خلقاً للإسلام، ونصاً آخر صور فيه أن الحياء إذا فقد من شيء فقدت منه الحياة، ولم يكن - الشيء أو الأمر - إلا مقبلاً. وانتقى نصاً آخر رسم المحور الذي يدور فيه الحياء ويكمن في التكلم والتحاوّر في المجالس وغيرها.

• الصدق:

ليس في الأخلاق والفضائل خلق أحسن للإصلاح من الصدق، إذ لولاه لانتزعت ثقة الناس بعضهم من بعض، فهو أصل الفضائل وأساس الأخلاق، من تحلى به كملت صفاته، وسمى سلوكه، وتحققت أخلاقه، فالاستمسك به في كل شأن وتحرّيه في كل قضية عنوان الرقي ودليل الكمال، ومظهر من مظاهر السلوك القويم.

من هنا كان بناء المجتمع الإسلامي قائماً على الصدق، ونبذ الظنون، ومحاربة الإشاعات، والأراجيف، وصد الشبه والأوهام، فالحقائق الراسخة والمبادئ الأصلية هي التي يجب أن تظهر وتعلو وتغلب، وأن تعتمد في العلاقات والأحوال المختلفة.

فالحافظ ابن أبي الدنيا أورد في كتبه مرويّات عديدة تتحدث عن الصدق وفضله وذم الكذب والمتصفين به، فروى عن رسول الله ﷺ قال " إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر

(4) المصدر نفسه: 73. الحديث رواه البخاري: 5 / 2268.

(5) المصدر نفسه: 91.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

يؤدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يؤدي إلى
الفجور، وإن الفجور يؤدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً
". (1) وأورد مثله عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال " أيها الناس إياكم والكذب فإنه بجانب
للإيمان ". (2)

وتحري الصدق فيه النجاة من المهالك، فروى الحافظ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال " تحروا
الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة، فإن فيه النجاة، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه
النجاة، فإن فيه الهلكة ". (3)

وأشار الحافظ إلى أن أصل الرذائل الكذب، فبه يتصدع كيان المجتمع، وتختل الأمور،
لذا فالإسلام طارد الكذابين، وشدد عليهم النكير، فقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
قال " أعظم الخطايا عند الله: اللسان الكذوب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة ". (4)
ويوصينا الحافظ ابن أبي الدنيا أن نغرس فضيلة الصدق في نفوس الصغار، حتى
ينشأوا عليها، وقد ألفوها في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم كلها، فأورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
قال رسول الله صلّى الله عليه وآله " من قال لصبيه: هاء أعطك فلم يعطه شيئاً، كتبت كذبة " (5)

(1) مكارم الأخلاق: 97. الحديث أورده البخاري: 5 / 2261.

(2) المصدر نفسه: 102.

(3) المصدر نفسه: 111. الحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب: 3 / 365. وقال رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت
هكذا معضلاً، ورواته ثقات.

(4) الصمت وآداب اللسان: 492.

(5) مكارم الأخلاق: 122. الحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب: 3 / 370.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مروياف ابن أبي الدنيا ﴾

وأورد مثله قول الشعبي⁽¹⁾:

أنك الفتى كل الفتى
لا خير في كذب الجواد
إن كنت صدق ما تقول
وحبذا صدق البخيل⁽²⁾

وأورد مثله عن إسماعيل بن عبيد الله المخزومي قال " أمرني عبد الملك بن مروان أن أعلم بنية الصدق كما أعلمهم القرآن، وأن أجنبهم الكذب وإن كان فيه، يعني القتل".⁽³⁾ والمرء قد يستسهل الكذب في المزاح و المرء، ظاناً أن مجال الترويح واللهو لا حظر فيه، ولكن الإسلام أباح الترويح عن القلوب بحدود الصدق و الحق، وفي ذلك أورد الحافظ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يؤثر الصدق، وحتى يترك الكذب في المزاح و المرء وإن كان صادقاً".⁽⁴⁾

ومن الصدق الوفاء بالوعد، فالوفاء من الصفات الطيبة التي تجعل الوفي موضع الثقة وتكسبه النجاح والظفر، ويعد الوفاء من أسباب الرقي في المجتمعات وتقدمها، وفي ذلك أورد الحافظ عن عبد الله بن أبي الحمساء رضي الله عنه قال " بايعت النبي ﷺ بيع قبل أن يبعث فبقيت له بقيه فوعده أن آتيه بها في مكانه ذلك، فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه، فقال: يا فتى، لقد شققت علي، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك".⁽⁵⁾ ونجاح الأمم في أداء رسالتها وبناء مجتمعاتها، يعود إلى ما يقدمه بنوها من أقوال وأفعال صادقة، وفي ذلك أورد الحافظ قول الشاعر:

إننا أناسٌ من سببتنا صدق
لبسوا الحياء فإن نظرت حسبهم
الحديث وواينا⁽⁶⁾ حتم
سقموا⁽¹⁾ ولم يمسمهم سقم

(1) هو عامر بن شراحيل أبو عمرو، ثقة مشهور فقيه فاضل، قال: مكحول ما رأيت أفضل منه. توفي بعد المائة. ينظر: تقريب التهذيب: 1/ 287.

(2) الصمت وآداب اللسان: 508.

(3) مكارم الأخلاق: 103.

(4) المصدر نفسه: 112. الحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب: 3/ 367.

(5) الصمت وآداب اللسان: 480. الحديث رواه البيهقي في السنن الكبرى: 10/ 198.

(6) أي وعدنا.

(1) في البيت خلل عروضي حيث خالفت عروضه سائر الأبيات.

مزج الإخاء بإخاؤه وهم

شر الإخاء إخاء مزحرج

ما ضر قبلي أهله الحلم⁽²⁾

زعم ابن عمي أن حلمي ضرني

ومما تقدم نجد أن ابن أبي الدنيا في باب الصدق ذوقاً رفيعاً في انتقاء واختيار النصوص التي تصب في سويداء الرقائق، لتؤدي دورها في تحريك المشاعر و التأثير في استلهام المعاني، فالنصوص التي ذكرت في محور الصدق عاجت موضوعه معالجة لا تختلف عن الحياء، إلا أنه كثيراً ما يرمز إلى الموضوعات كل بما يجانس ويناسبه، وبما يكون سداً لفراغ وبلسماً لجراح.

فقد ورد الصدق في اختياراته أن تاج النجاة في هذه الحياة، وأنه مصدر الأمان، وإن كان الهلاك محيطاً به، وقد ألمع جانب الصدق في الأخلاق بذكر نقيضه، فاختار نصوصاً دارت حول الكذب، مما يجلي ثوب الصدق عن الأدران.

• الحلم والصفح:

تتفاوت مستويات البشر في الثبات أمام المغريات، فمنهم من تثيره التوافه، فيغضب على عجل، ومنهم من تستفزه الشدائد، فيبقى صابراً على وقعها، مسيطراً عليها برجاحة عقله وحسن خلقه.

ومع أن طباع الناس مختلفة بين الحدة والهدوء، والعجلة والأناة، والكدر والنقاء إلا أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين ثقة المرء بنفسه، وبين أناته مع الآخرين، وتجاوزه عن خطئهم. فالحلم بالكسر الأناة⁽³⁾ وضبط النفس، والصبر على المثيرات، عند الغضب حال وجود ما يدعوا إليه، فيحدث ما لا تحمد عقباه. وقد ذكرت مادة الحلم في القرآن الكريم بما يقارب العشرين مرة، فقد وصف الله ذاته المقدسة بصفة الحلم، قال سبحانه وتعالى "وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ".⁽⁴⁾ والحلم خلق من أخلاق النبوة والرسالة، قال تعالى "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

(2) الصمت وآداب اللسان: 478.

(3) الكليات معجم في المصطلحات و الفروق اللغوية: 404.

(4) سورة البقرة: الآية 235.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

حَلِيمٌ أَوْاهُ مُنِيبٌ" (1) وطلب الله عز وجل من المؤمنين أن يتصفوا بالحلم، وحث على ذلك، بقوله تعالى "وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (2).

وقال تعالى " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ " (3).

والحلم يختف عن العفو في فارق الزمن، فالعفو قد يكون عن إساءة قديمة، بينما يكون الحلم في وقت الإساءة، وقد عد القرآن الكريم هذه الشمائل الرقيقة، طريق الفوز والفلاح، قال سبحانه وتعالى " وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " (4) وقد أكد رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله " من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخرجه من أي الحور شاء " (5).

وأراد الحافظ ابن أبي الدنيا، في مروياته التي انتقاها أن ينقل للمتلقي بعض الإرشادات النبوية، والنصائح الأخلاقية، وأن يجعل منها دروساً في الحلم والأناة وضبط النفس، فروى عن عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص قال " مر عبد الرحمن بناسٍ من بني جمح، فنالوا منه، فبلغه ذلك فمر بهم، وهم جلوس، فقال: يا بني جمح، قد بلغني شتمكم إياي، وانتهاكم ما حرم الله، وقديماً شتم اللئام الكرام، فأبغضوهم، وأيم الله ما يمنعني منكم إلا شعر عرض لي، فذلك الذي حجزني عنكم، فقال رجل منهم: وما الشعر الذي نهاكم عن شتمنا ؟ قال:

والله ما عطفاً عليكم تركتكم	ولكنني أكرمت نفسي من الجهل
نأيتكم (6) بها عنكم وقتلت لعاذلي	على العلم دمني قد تداركني محلي
وجللني شيب العذل ومن يشبه	يكن قمناً من أن يضيق من العذل
وقلت لعل القوم أخطأ رأيهم	فقالوا وخالوا الوعظ كالمهج السهل

(1) سورة هود: الآية 75.

(2) سورة الشورى: الآية 43.

(3) سورة الأعراف: الآية 199.

(4) سورة آل عمران: الآية 134.

(5) رواه الترمذي: 4 / 656.

(6) في الأصل نأوت.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

فمهلّا أريحوا الحلم بيني وبينكم بني، جَمْع لا تشربوا أحرار الضحل⁽¹⁾
والمرء إذا سامح وصفح وأصلح، فإن الله يجعل في قلب المسيء المانع الذي يمنعه عن
مثل إساءته.

فروى الحافظ عن الخليل بن أحمد⁽²⁾ قال "كان يقال: من أساء فأحسن إليه،
حصل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته".⁽³⁾

والحلم سيد الأخلاق لأنه يكمل صاحبه بجميل الخصال، ويحبه إلى ربه ويرفع قدره
عند الناس، فأورد في ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "أبغوا الرفعة عند الله، قالو
وما هي يا رسول الله؟ قال: تصل من قطعك، وتعط من حرمك، وتحلم عمن جهل
عليك".⁽⁴⁾ والمرء عند ما يلتزم صفة الحلم في مواطن الغضب يظهر أمام الجميع كيف أنه
من أولي الألباب، فالحلم خصلة من خصال العقلاء.

وكل ما وقر الإيمان في القلب ازداد معه الحلم والسماحة، وترفع المرء من طلب
الهلاك والغضب للمخطئين في حقه، وقد حرم الإسلام المهاترات السفهية، وتبادل اللعن
والسباب بين المتخاصمين، فروى الحافظ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال "لم يكن رسول
الله صلى الله عليه وسلم سباباً، ولا فحاشاً، ولا لعاناً، وكان يقول لأحدنا عند المعاتبة: ماله ترب جبينه
".⁽⁵⁾ وأهل الحلم له السيادة والريادة على الجهلة، فأورد الحافظ ما أنشده أبو عبد الله
الأتيسي:

تحرز ما استطعت من السفهية	بجلمك عنه إن الفضل فيه
فقد يعصي السفهية مؤدبيه	ويبرم باللجاجة منصفيه
تلين له فيغلظ جانباه	كغير السوء يرمع عالفه
إذا ابتعت السفهية فهي حلماً	وصمتاً وأستعد لسد فيه ⁽⁶⁾

(1) الحلم: 45.

(2) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي.

(3) الحلم: 43.

(4) المصدر نفسه: 20. قال الشيخ الألباني: الحديث ضعيف. ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، 1575.

(5) المصدر نفسه: 68.

(6) المصدر نفسه: 68. في الأصل: وضمناً، وأصلحناه إتماماً للمعنى.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

ومن الناس من لا يسكن عند الغضب، فهو في انفعال دائم، وتغيظ مستمر، ولكن الحافظ ابن أبي الدنيا أشار إلى أن هناك مسلماً أنبل من ذلك، وأرضى الله، وأدل على المروءة، وهو أن يكظم المرء غضبه فلا ينفجر، وأن يجعل عفوه عن المسيء نوعاً من توفيق الله له، فلا يرد عليه تحلماً، وفي ذلك أورد الحافظ ما أنشده محمود الوراق:

رجعت على السفه بفضل حلمي وكان العفو (1) عنه له لجاماً
وظن بي السفاه فلم يجدني أسافهه وقتلت له: سلاماً
فقام يجر رجليه ذليلاً وقد حسب المذمة والملاماً
وفضل الحلم أبلغ في سفيه وأحرى أن ينال به انتقاماً (2)

فالحلم والأناة خصلتان يحبهما الله ورسوله، فأورد الحافظ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أن النبي ﷺ قال " لأشج عبد القيس: إن فيك خصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة ". (3)

وواضح من اختيارات ابن أبي الدنيا، الحس الأدبي الرفيع، الذي ينقل المتلقي من الخيال إلى المحسوس، ومن الغيب إلى المشاهدة، تبعاً لما يمتلكه من رفعة أدبية، وبالأخص في أدب الرقائق. ويبدو ذلك جلياً من النصوص التي انتقاها، فمرة ظهر لنا الحلم على هيئة رجل هين لين يمشي بين الناس بالخلق والسمت الرفيع الهادي الذي يأنس به كل شيء. وتارة يظهر لنا الحلم كأنه نسيم يخترق نسيمات الناس و الناس يستنشقونه، فتهدأ فيهم الحمية، ويذوب الغضب، وتغور العنجهية وتعلو السكينة، وتبرز الطمأنينة، وقد أبدع في تصوير أثر الحلم بين الناس حتى ظهر كأنه حلة غطت وعمت كل سجية وطبيعة إنسانية، وهكذا الإبداع عند أبي الدنيا.

(1) في الأصل: الفعل. وأصلحناه إتماماً للمعنى.

(2) الحلم: 34. فالشاعر في هذه الأبيات يصور لنا صورة جميلة في فضيلة السكوت عن السفه وأن العفو عنه خير علاج.

(3) المصدر نفسه: 31. الحديث رواه مسلم: 48/1.

● السخاء والكرم:

السخاء والكرم من الفضائل التي لا تصدر إلا عمن يحس بحق الناس عليه، والتفضل على الغير من غير عوض يسمى سخاءً، وكان العرب يعدون هذه الصفة من المفاخر التي يفخرون بها، إذ السخاء والكرم من الصفات المحمودة التي تعد من مقومات الشخصية وأساسياتها.

والحافظ ابن أبي الدنيا، أراد من خلال مروياته أن يطهر النفس الإنسانية، ويعالجها من مرض الشح والإمساك، ويعودها للعطاء و البذل كما أراد من الناس أن تكون نفوسهم سخية، وأكفهم ندية، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الخير ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه في نهار أو ليل، وإلى هذه المعاني أشار القرآن الكريم قال عز وجل " الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " (1) ولن تفلح أمة في القيادة والسيادة، إلا إذا وثقت الصلات بين أبنائها، فلم تبق محروما يقاسى ويلات الفقر، ولم تبق غنياً يحتكر مباحج الغنى، ومن أروع الأمثلة التي أوردها الحافظ ابن أبي الدنيا في بيان ما للعطاء والجود من أثر في استمالة النفوس و كسب ودها، فأورد عن صفوان بن أمية قال " أتيت النبي ﷺ وهو من أبغض الناس إلي، فأعطاني، ثم أعطاني، ثم أعطاني، فلهو أحب الناس إلي " (2) وأورد مثله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال " لقل ما سئل رسول الله ﷺ شيء من الدنيا على الإسلام إلا أعطاه، فسأله رجل فأمر له بغنم بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة " (3).

وإن الصدقات التي ييذلها الإنسان على اختلاف صنوفها، من زكاة أو هبة، أو نفقة، أو غير ذلك تقيه السوء والبلاء، فأورد الحافظ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن

(1) سورة البقرة: الآية 274.

(2) مكارم الأخلاق: 255.

(3) المصدر نفسه: 253.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

النبي ﷺ قال " عليكم باصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء، وعليكم بصدقة السر، فإنها تطفئ غضب الله عز وجل ".⁽¹⁾

والبذل الواسع عن إخلاص صفة يحبها الله، فأورد الحافظ عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له " يا علي كن سخيّاً، فإن الله يحب السخاء، وكن شجاعاً فإن الله يحب الشجاع، وكن غيوراً فإن الله يحب الغيور، وإن امرؤ سألك حاجة فاقضها، فإن لم يكن لها أهلاً فكن أنت له أهلاً ".⁽²⁾

والحق أن الكرم طريق السعادة، وأن السخاء سبب الفلاح، وأن الذي يجعل يديه ممراً لعطاء الله يظل مبسوط اليد بالنعمة، مكفول اليوم والغد برحمة الله وكرمه، فإن بذل اليوم القليل يرجع غداً أو بعد غد بالكثير، فأورد الحافظ عن جعفر⁽³⁾ بن محمد عن أبيه عن جده رفعه قال " ما من مؤمن أدخل على مؤمن سروراً إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله ويمجده ويوحده، فإذا صار المؤمن في لحده أتاه السرور الذي أدخله عليه، فيقول له: أما تعرفني؟ فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذي أدخلتني على فلان، وأنا اليوم أونس وحشتك، وألقنك حجتك، وأثبتك بالقول الثابت، وأشهد بك مشهد القيامة، وأشفع لك من ربك، وأريك منزلتك من الجنة"⁽⁴⁾

وأورد حديثاً يوصي فيه المرء أن يكرم نفسه، ثم أهل بيته، ثم ذوي رحمه، ثم سائر الناس، وأعظم الأجر ما أنفقه المرء على أهله، فروى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " كل معروف صدقة، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة، وما بقي به عرضه كتب له صدقة ".⁽⁵⁾

(1) قضاء الحوائج: 25. الحديث لم أتمكن من تخريجه. وخرجه محقق كتاب قضاء الحوائج فقال: أورده السيوطي في جمع الجوامع:

1/ 580 ز وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج عن ابن عباس.

(2) المصدر نفسه: 52. لم أتمكن من تخريجه. وخرجه محقق كتاب قضاء الحوائج فقال: أورده السيوطي في جمع

الجوامع: 1/ 968. وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج عن علي .

(3) هو جعفر الصادق. ت 148هـ.

(4) المصدر نفسه: 97 .

(5) المصدر نفسه: 27. قال الشيخ الألباني الحديث ضعيف، ينظر: ضعيف الجامع: 4/ 155.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وبين الحافظ ابن أبي الدنيا من خلال مروياته أن من السخاء والكرم عطاء المرء فيما يتقي به عرضه، فقال " لقي الفرزدق حسيناً عليه السلام بالصفاح، فأمر له الحسين بأربعة مائة دينار، فقيل: يا أبا عبد الله، أعطيت شاعراً متبهرأ أربعة مائة دينار ؟ فقال: إن من خير مالك ما وقيت به عرضك " (1).

وأفضل العطية ما كان قبل الطلب، فأور الحافظ عن عبيد الله بن عباس رضي الله عنهما قال لأخيه " إن أفضل العطية ما أعطيت الرجل قبل المسألة، فإذا سألك فإنما تعطيه ثمن وجهه حين بذله إليك " (2). وأورد مثله فقال " دخل الفرزدق على عمرو بن عتبة و هو في داره بالزاوية، فجعل يسأل العرق عن وجهه وقال:

لولا ابن عتبة عمرو والرجاء له ما كانت البصرة الحمقاء لي وطناً
أعطاني المال حتى قلت: يودعني أو قلت: أودع لي مالاً رأه لنا
فجوده مكسباً شكراً ومنته وكلما ازددته شكراً زاد نبي مننا
يرمي بهمته أقصى مسافتها ولا يريد علي معروفه ثمناً (3)

تصور لنا مرويات ابن أبي الدنيا السخاء والكرم كأنه خطيب بين الناس يؤثر فيهم، فيعدل معوجهم ويشفي مريضهم، ويصلح مفسدهم. كما يظهر الكرم والسخاء في هذه المرويات كأنه منقذ من مهالك دنيوية وأخروية، وقد وفق ابن أبي الدنيا في اختيار الترقيق للقب، حينما نقلنا إلى آثار السخاء والكرم لما بعد الحياة، فالحي ربما فكر في حاله بعد مماته، ومن يكون له في قبره، فأزاح الستار ابن أبي الدنيا عن ذلك وأبرز أن الكرم والسخاء يثمران سروراً وسعادة في الحياة وفي الممات.

(1) مكارم الأخلاق: 275.

(2) قضاء الحوائج: 49.

(3) مكارم الأخلاق: 298. ديوان الفرزدق.

● الأمانة:

الأمانة فضيلة من الفضائل التي لا يستغني عنها فرد في حياته، ليصل إلى غاياته المرجوة منها، كما أن الجماعة لا يمكن أن ترسي قواعدها على دعائم ثابتة، ولا تشيد بناء حياتها الرصين، إلا إذا اتصفت بها، وحافظت عليها.

فالأمانة هي: رعاية حقوق الله، وحفظ حقوق الناس، فهي واسعة الدلالة، وترمز إلى معاني شتى، مناطها جميعاً شعور المرء بتبعيته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه القوي بأنه مسؤول عنه أمام ربه، والعوام من الناس يحددون الأمانة في أضيق معانيها، وأخرها ترتيباً، وهو: حفظ الودائع، مع أن حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل. لهذا دعا الإسلام إلى الأمانة، وحبب فيها وأمر بها، فقال تعالى " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا " (1) وهي إحدى صفات الأبرار، قال تعالى " وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ " (2) كما هي أحد عناصر تكامل الشخصية، فروى الحافظ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال " أضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: أصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم " (3).

والتجرد عن هذه الفضيلة يسلب المرء الإيمان وجميع الفضائل، ويجعله في عداد المنافقين، فأورد الحافظ عن أنس رضي الله عنه قال " قل ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له " (4) وأورد مثله حديث رسول الله ﷺ قال " آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا أوعد أخلف، وإذا ائتمن خان " (5).

ومن معاني الأمانة التي أشار إليها ابن أبي الدنيا، أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك، وإلى المواهب التي خصك الله بها، وإلى ما أحببت من أموال وأولاد، فتدرك أنها

(1) سورة النساء : الآية 58.

(2) سورة المؤمنون : الآية 8.

(3) مكارم الأخلاق: 98. والصمت وآداب اللسان: 471.

(4) مكارم الأخلاق: 197.

(5) المصدر نفسه: 100. الحديث رواه مسلم: 78/1.

الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا

ودائع الله الغالية عندك، فيجب أن تسخرها في قرباته، وأن تستخدمها في مرضاته، فأورد في ذلك عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال " أول ما خلق الله عز وجل من الإنسان فرجه، ثم قال: هذه أمانتي عندك، لا تضيعها إلا في حقها، فالفرج أمانة، والسمع أمانة، والبصر أمانة " (1).

ومن معاني الأمانة أيضاً أن تحفظ حقوق المجالس التي تشارك فيها، فلا تدع لسانك يفشي أسرارها، وسيرد أخبارها، فإذا تهاون الإنسان وأفشى سر غيره كان إفشاؤه حراماً إن كان فيه إضرار، ولؤماً إن لم يكن فيه شيء من ذلك، فأورد الحافظ حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " الحديث بينكم أمانة " (2) وأورد مثله عن الحسن البصري قال " إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك " (3) وفي حفظ السر وعد إفشائه أورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

لا تنفش سرّك إلا إليك
فإنني رأيتُ نخوة الرجا
فإن لكل نصيح نصيحاً
ل لا يتركون أديماً صحيحاً (4)

والودائع التي تدفع إلينا لنحفظها حيناً، ثم نردها إلى ذويها حين يطلبونها، هي من الأمانات التي نسأل عنها، فأورد الحافظ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من سره أن يحبه الله ورسوله، فليصدق حديثه إذا حدث، وليؤدّ أمانته إذا أؤتمن وليحسن جواره إذا جاور " (5).

والأمانة تدعو إلى رعاية الحقوق، وتعصم عن الدنيا، ولا تكون بهذه المثابة إلا إذا استقرت في وجدان المرء، ورسخت في أعماقه، وهيمنت على مشاعره، والأمانة ضمير حي إلى جانب الفهم الصحيح، فإذا مات الضمير انتزعت الأمانة، وأدعياء التحرر، يزعمون للناس ولأنفسهم أنهم أمناء، ولكن هيهات أن تستقر الأمانة في قلب تنكر للحق. فأورد

(1) الورع: 92.

(2) الصمت وآداب اللسان: 450. لم أتمكن من تخريجه. وقال محقق كتاب الصمت وآداب اللسان: قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: 114/3. رواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلاً.

(3) المصدر نفسه: 451.

(4) المصدر نفسه: 451.

(5) مكارم الأخلاق: 190. لم أتمكن من تخريجه. وقال محقق كتاب مكارم الأخلاق: أوردته السيوطي في الجامع الكبير: 1/

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

الحافظ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " أول ما يرفع من هذه الأمة الحياء والأمانة، فسلوهما الله تعالى ".⁽¹⁾ وأورد مثله عن كعب الأحبار قال " يأتي على الناس زمان ترفع فيه الأمانة، وتنزع فيه الرحمة، وترسل فيه المسألة. فمن سأل فأعطي لم يبارك له ".⁽²⁾

إن الأمانة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجال المهازبل، الذين يزعمون للناس أنهم أمناء، فإن من ضخامة الأمانة أنها تثقل كاهل الوجود كله، فلا ينبغي للمرء أن يستهين بها أو يفرط في حقها، فأورد الحافظ ابن أبي الدنيا في ذلك عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه " لا تُعَرِّتْكُمْ طَنْطَنَةُ الرَّجُلِ بِاللَّيْلِ - يعني صلاته - فإن الرجل كل الرجل من أدى الأمانة إلى من ائتمنه، ومن سلم المسلمون من لسانه ويده ".⁽³⁾ ومثله أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال " أيها الناس لا تُعَجِّبَنَّكُمْ مِنَ الرَّجُلِ طَنْطَنَتَهُ، ولكن من أدى الأمانة، وكف عن أعراض الناس فهو الرجل ".⁽⁴⁾

ففي النصوص المنتقاة لأبن أبي الدنيا نجد أنه أحاط بالأمانة من جميع جوانبها موضوعاً ومكانة وأداء و التزاما كل هذه المعاني تجلت بإشارة مروياته، فهو كالحكيم الذي يشخص الداء، ويفرض له الدواء. ويستخلص من هذه النصوص أنه أعلى مكانة الأمانة، وجعلها في قمة الأعمال الصالحة، ومن أهم الأعمال التي تدخل الإنسان الجنة. فقد أتى بوسائل الترغيب في أدائها، والترهيب عن عدم ذلك، وهذا نابع من رفعة أدبيته في الرقائق.

(1) مكارم الأخلاق: 190. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 7: 321.

(2) المصدر نفسه: 192.

(3) المصدر نفسه: 193.

(4) المصدر نفسه: 193.

✧ المبحث الثالث: العلاقات والأحوال الاجتماعية.

لو أننا تتبعنا آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة النبوية، لوجدنا الجانب الاجتماعي يأخذ أهميته ومكانته بعد العقيدة مباشرة في كثير من الآيات والأحاديث طيلة الفترة التاريخية للتشريع الإسلامي.⁽¹⁾

ولا شك أن الجانب الاجتماعي مجاله واسع جداً، ومتشعب كثيراً، ولكني سأحدث عن جانب مهم منه، وهو موضوع الأسرة وشؤون العائلة. فالعناية بالأسرة والاهتمام بها، وحياطتها بكل أسباب التكريم والتقويم، له آثاره الكبيرة في المجتمع، والحافظ ابن أبي الدنيا قد عرض لهذا الجانب صوراً مشرقة لتوجيهات المربين والعلماء والدعاة في القرون الثلاثة الأولى الفاضلة، معالجاً أهم لبنة في كيان الأمة وبناء المجتمع، وهي (الأسرة) وقد أمرنا سبحانه وتعالى بانقاذ أنفسنا وأهلينا من النار، قال عز وجل "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ".⁽²⁾

وحفظت لنا كتب ابن أبي الدنيا العديد من النصوص التي تضم خلاصة وتجربة أولئك الأخيار في الاتجاه التربوي الإصلاحى، ذلك أن فكرة وإبداع الحافظ في الجانب الاجتماعي، لم تأت من فراغ، وإنما اقتضتها أجواء المجتمع وقتذاك، فقد كان هناك أعداد كبيرة من الوافدين الجدد على الإسلام، لم تأخذ حظها الأوفر في الإعداد و التربية والصقل، فجاءت مصنفاته علاجاً لهذه الحالة، وسدا لهذا النقص، وتذكيراً بمنهج النبوة في تربية الأسرة المسلمة، وتنشأتها وإعدادها.

والذي امتازت به مصنفات بن أبي الدنيا في الجانب الاجتماعي حرصها على موضوعات الأحوال والعلاقات الاجتماعية الهادفة، ومن أبرز مصنفاته التي اهتمت بهذا

(1) من الآيات القرآنية التي تؤكد هذا المعنى قوله تعالى "خُذُوهُ فَغُلُّوهُ" ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ" ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ" سورة الحاقة: الآية 30-34. ومن الأحاديث قوله ﷺ "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله" متفق عليه، وقوله ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" متفق عليه.

(2) سورة التحريم : الآية 6.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

الجانب كتابه (العيال) فإنه عالج موضوع الأسرة معالجة شاملة استوعب أهم الموضوعات المتعلقة بالأسرة وشؤون العائلة.

وأول ما توجهت إليه عناية الحافظ ابن أبي الدنيا في إصلاح المجتمع، ومعالجة علله الاجتماعية، أنه تناول في مروياته الحقوق الاجتماعية الخاصة بالأسرة، مبيناً حقوق الزوجة على زوجها، وحقوق الزوج على الزوجة، وحقوق الأبناء على الآباء، وحقوق الآباء على الأبناء.

وسنقف على نماذج من مروياته بينت هذه الحقوق.

● حقوق الزوجة على زوجها:

لما كانت الزوجة أحد أفراد الأسرة ما كان للإسلام أن يهمل شأنها والعناية بها، فقد خصها بالرعاية، وحث على أداء حقوقها، ومعاملتها بالحسنى، ومعاشرتها بالمعروف، وعدم إهانتها أو الاعتداء عليها، أو التقصير في حقوقها، ولذلك حاول ابن أبي الدنيا أن يحصر حقوق الزوجة على زوجها فيما يلي:

◆ حسن العشرة:

قال تعالى "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (1) فهذا أمر صريح يدل على وجوب حسن المعاشرة للزوجة لأنها شريكة الرجل في حياته وعونه في ملماته، وقد أورد الحافظ جملة من الأحاديث والآثار توصي بالعطف على الأزواج، والرأفة بهم والمداواة لهم، وأورد من ذلك قوله ﷺ " استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوانٌ اتخذتموهن بأمانة الله عز وجل، واستحللتم فروجهن بكلمة الله " (2) وقوله ﷺ " أكمل المؤمنون إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم " (3).

كما أورد في حسن المعاشرة، مازحة الرجل زوجته، وإدخال السرور إليها. فروى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال " إنك لم تنفق نفقة تبغي بها وجه الله إلا

(1) سورة النساء: الآية 19.

(2) العيال: 661/2. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 267/3.

(3) المصدر نفسه: 658/2. الحديث أورده ابن أبي شيبة في مصنفه: 210/5.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

أجرت عليها، حتى في اللقمة ترفعها إلى في امرأتك ⁽¹⁾. فوضع اللقمة من الزوج في فم امرأته لا يكون إلا في مداعبة أو مرض، والمراد هنا المداعبة. ومن حسن المعاشرة التي أشار إليها ابن أبي الدنيا، ملاعبة الرجل أهله، فروى عن عائشة رضي الله عنها، قالت " لما ملكني رسول الله ﷺ لقيني في زقاق فتناولني، فسابقني فسبقته، فلما بنى بي قال: يا عائشة هل لك في السباق؟ فسابقني، فسابقني فقال هذه بتلك " ⁽²⁾.

♦ تعليم الزوجة ما تحتاجه من أمور الدين:

ومن الحقوق التي أشار إليها ابن أبي الدنيا تعليم الرجل لأهله، فالرجل مسئول عن الزوجة أمام الله تعالى لأنه راعيها وكل راعي مسئول عن رعيته كما جاء في الحديث "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم" ⁽³⁾. فيعلمها ما لم تتعلمه من أحكام الإسلام الضرورية ⁽⁴⁾ فروى عن الحسن " مفسراً قوله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) قال: أدبهم وعلموهم " ⁽⁵⁾. والرجل مستأمن في أهل بيته ويسأل عنهم يوم القيامة، فأورد الحافظ حديثاً جاء فيه " لا يسترعي الله عز وجل - أراه قال - عبداً رعية قلت أو كثرت إلا سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة: أقام فيهم أمر الله عز وجل، أو أضاعه حتى يسأله عن أهل بيته خاصة " ⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه: 693/2. الحديث رواه البخاري: 5: 2047.

(2) العيال: 754/2.

(3) المصدر نفسه: 491/1 الحديث رواه البخاري: 5/ 1996.

(4) كأحكام الطهارة والحيض والنفاس والصلاة وقراءة القرآن والصيام وغير ذلك.

(5) العيال: 496/1.

(6) المصدر نفسه: 497/1. أورده الإمام أحمد في مسنده: 2: 15.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

♦ النفقة على الزوجة:

لقد بلغت عناية الإسلام بالزوجة والترغيب في حسن معاملتها، وإكرامها والنفقة عليها من خالص مال زوجها عناية خاصة، ومكانة مرموقة رفيعة، فالرجل الكريم هو الذي تسخو نفسه، ويده على أهل بيته، فلا يتركهم ينظرون إلى ما عند الناس ما دام يستطيع كفايتهم مطالبهم.

وما من شيء ينفقه الرجل على أهله إلا كان له به عند الله أجر وثواب، وقد أورد الحافظ ابن أبي الدنيا في ذلك قول الشعبي " إن من النفقة التي تضاعف تسعمائة ضعف نفقة الرجل على نفسه وعلى أهل بيته ".⁽¹⁾ ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال " دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقة، ودينار تصدقت به، ودينار أنفقته على أهلك، أفضلها الدينار الذي أنفقته على أهلك ".⁽²⁾

وعلى الزوج أن يتحرى الحلال الطيب في كسبه وإنفاقه على أهله، فأورد الحافظ عن سفيان الثوري⁽³⁾ قال " عليك بعمل الأبطال والكسب من الحلال، والإنفاق على العيال ".⁽⁴⁾

♦ العدل بين الأزواج:

ومن حقوق الزوجة التي لم يغفلها الحافظ ابن أبي الدنيا، عدل الرجل بين زوجاته في كل شيء، وإلا فإنه يعتبر ظالماً، فروى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " من كانت له امرأتان يميل مع أحدهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط ".⁽⁴⁾ كما أشار الحافظ إلى عدل الرسول ﷺ بين نسائه، وقد كان يدعو " اللهم هذا فعلي فيما أملك، ولا تلمني فيما تملك ولا أملك ".⁽⁵⁾ وقد أورد الحافظ طائفة من الآثار في عدل

(1) العيال: 696/2.

(2) المصدر نفسه: 143/1. الحديث رواه مسلم: 2/692.

(3) هو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ فقيه، عابد إمام حجة. ت 161هـ. ينظر: حلية الأولياء: 381/6.

(3) العيال: 158/1.

(4) المصدر نفسه: 2/704. الحديث رواه الترمذي: 3/447.

(5) المصدر نفسه: 2/701. الحديث رواه الترمذي: 3/446.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويآ ابن أبي الدنيا ﴾

الصحابفة بن نساآهم؁ فروى عن علي ابن أبي طالب ؓ فقال "كان لعلل امرأآان؁ فإذا كان يوم هذه اشآرى لآماً بنصف درهم؁ وإذا كان يوم هذه اشآرى لآماً بنصف درهم". (1) وروى عن معاذ بن جبل ؓ فقال "كان لمعاذ امرأآان؁ إذا كان يوم هذه لم يتوضأ عند آلك". (2)

♦ كف الأذى عن الزوجة ومراعاة شعورها:

لاشك أن حسن المعاشرة والمصاحبة للزوجة من شأنها أن آمد الحياة الزوجية بروابط الحب والمودة والرحمة؁ وأن المعاملة السيئة في التصرف وإطلاق السب والشتم من شأنها أن آحدث التوتر؁ وآذهب الحب وآزید الشآناء والبغضاء؁ فالآافظ ابن أبي الدنيا أشار إلى هذا التعامل عندما أورد طائفة من الأحاديآ والآآار الآل آآذر من آآقبح واللعن والضرآ. فروى " أن رجلاً سأل النبل ؓ: ما آق المرأة على الزوج؟ قال: أن يطعمها إذا طعم؁ وآكسوها إذا آآسى؁ ولا يضرب الوجه ولا يقبح ولا يهآر إلا في البيت". (3) وأورد مثله عن عبد الله بن زمعة ؓ قال " سمآ رسول الله ؐ وهو يآطب فوعظهم وآذر النساء؁ فقال: علام يآلد آآكم امرأآه آلد العبد؟ آم يضآآعها من أول يومه". (4)

ويتضح من آلال النصوص الموجزة القصيرة؁ الآل آآآاها ابن أبي الدنيا في آق الزوجة على زوجها؁ أنه سد كل آغرة ممكن أن آآدم آيان الزوجية؁ فقد برع في آآآاء النصوص الآل عآآآ الحياة الزوجية في كل أشكالها؁ من المعاشرة؁ والنفقة؁ وآغيرها.

وأبرز ما يلفت النظر إليه هو آصافة ابن أبي الدنيا في الموضوع الذي يطرقه؁ فقد آآآقى الدواء النآآع في إصلاح شأن الزوجية إذ أشار إلى آسن معاشرة الزوج لزوجآه وآآآقى النص الذي يآبب الزوج إلى زوجآه؁ وآلك في إطعامها والإنفاق عليها ومراعاة شأنها وآغير ذلك.

● آقوق الزوج على الزوجة:

(1) العيال: 702/2.

(2) المصدر نفسه: 703/2.

(3) المصدر نفسه: 674/2. الآآآ أورآه الآاكم في المستآرك: 204 /2.

(4) المصدر نفسه: 677/2. الآآآ رواه مسلم: 4: 2191.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

عرفنا مما سبق حقوق الزوجة على زوجها، من حسن العشرة وإكرام الصحبة، والتعليم والنفقة، فإذا كان للزوجة من زوجها كل هذه الحقوق فله هو عليها حقوق وواجبات، وهذه الحقوق كثيرة متعددة، منها: أن لا تخرج من دار زوجها إلا بإذنه وأمره، وأن لا تخرج متبرجة ومتهتكة، وأن لا تدخل بيته من يكره، وأن لا تنفق من ماله إلا بإذنه، إلى غير ذلك مما تضمنه قوله تعالى " وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ " (1) وقد اختار الحافظ بعض من ذلك، منها:

♦ طاعته بالمعروف:

من حق الزوج على زوجته أن تطيعه في غير معصية لأن القوامة له، قال تعالى "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ". (2) وأن تبتعد عن كل شيء لا يرضاه أو يكرهه، فلا تدخل أحدًا بيته إلا بإذنه ولو كان أقرب الناس إليها أو إليه، ولا تخرج من بيته إلا بإذنه ولو كانت ذاهبة لأبيها أو أمها، ولا تصرف في ماله إلا بإذنه، ولا تصوم نفلًا إلا بإذنه، فقد أورد الحافظ جملة من الأحاديث والآثار تبين هذه الحقوق، فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " سألت امرأة رسول الله ﷺ فقالت: ما حق الرجل على امرأته؟ قال: لا تمنعه نفسها وإن كانت على رأس قتب (3)، قالت: وما حق الرجل على امرأته؟ قال: لا تصوم يوماً تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت أثمت، ولم يتقبل منها، قالت: وما حق الرجل على امرأته؟ قال: لا تعطي شيئاً من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت كان له أجره وعليه الوزر، قالت: وما حق الرجل على امرأته؟ قال: أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها ملائكة الغضب حتى تتوب وترجع. قالت لا جرم، و الله لا يملك علي أمري رجل أبداً " (4)

ومحافظة الزوجة على طاعة زوجها واعترافها بحقه يعتبر جهاداً في سبيل الله، فأورد الحافظ في ذلك عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال " بينا نحن قعود عند رسول الله ﷺ إذ أتته

(1) سورة البقرة: الآية 228.

(2) سورة النساء: الآية 34.

(3) القتب: هو الرجل الصغير على قدر سنام بعير، جمعها أقتاب.

(4) العيال: 716-715/2. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 4/ 307. قال رواه البزار وفيه حش وهو ضعيف.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

امرأة، فقالت: السلام عليك يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك. الله رب الرجال ورب النساء، وآدم أبو الرجال وأبو النساء، بعثك الله إلى الرجال وإلى النساء، والرجال إذا خرجوا في سبيل الله فقتلوا، فأحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله، وإذا خرجوا لهم من الأجر ما قد علموا، ونحن نخدمهم، ونجلس فما لنا من الأجر؟ قال لها رسول الله ﷺ: أقرئي النساء عني السلام وقولي لهن: إن طاعة الزوج تعدل ما هناك، وقليل منكم تفعله". (1)

♦ أن توليه توقيراً واحتراماً يليق بمكانته:

مكانة الرجل بالنسبة للمرأة مكانة عالية رفيعة، تفوق كل تصور لا يبلغها أحد من أهلها أبداً، فالسجود لو كان جائزاً لغير الله عز وجل لكان الزوج أولى الناس به، فقد خص ابن أبي الدنيا هذه المسألة بعدة أحاديث، من ذلك ما رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " لو صلح لبشر أن يسجد لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه (2) إلى مفرق رأسه قرحة تفجر بالقريح والصيد، ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه ". (3)

والزوجة لا تجدد حلاوة الإيمان ولا تذوقها حتى تؤدي ما لزوجها عليها من حق، فأورد الحافظ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال " لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، ولا تجدد امرأة حلاوة الإيمان حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها - يعني زوجها - نفسها وهي على ظهر قتب ". (4)

والزوج هو باب للمرأة، إما للجنة في حال رضاها عنها بالحق، وإما للنار عند سخطه عليها بالحق، فقد أشار ابن أبي الدنيا إلى هذا المعنى، فروى عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ " أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة ". (1) وأورد مثله عن

(1) العيال: 2/ 721. الحديث رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: 4/ 305. قال رواه البزار وفيه رشدين بن كريب وهو ضعيف

(2) في الأصل قرنه، وأصلحنه إتماماً للمعنى.

(3) العيال: 2/ 720. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 9/ 4.

(3) المصدر نفسه: 2/ 728. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 4/ 309.

(1) المصدر نفسه: 2/ 725. الحديث رواه الترمذي: 3/ 466.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

حصين بن محسن، أن عمة له أتت النبي ﷺ في حاجة لها، ففرغت من حاجتها، فقال لها رسول الله ﷺ أذات زوج أنت؟ قالت: نعم، قال: فكيف أنت له؟ قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه، قال: انظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك وناارك". (2)

والمرأة الصالحة تبادر لترضية زوجها عند تخاصمهما، أو عند غضبه عليها، فأورد الحافظ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال "خير نسائكم من أهل الجنة، الودود الولود، القوود على زوجها، التي إذا أذنبت أو آذت أتت زوجها حتى تضع يدها في كفه، فتقول: لا أذوق غمضاً حتى ترضى". (3)

♦ أن لا تتزين إلا لزوجها:

ومن حقوق الزوج على زوجته التي لم يغفلها ابن أبي الدنيا تزوين المرأة لزوجها، فالمرأة الصالحة التي يراها زوجها متزينة له متعة من أجله توفر له مطالبه التي اعتادها وتهيب له الجو المناسب لراحته، هي بحق متاع الحياة الدنيا، كما جاء في الحديث "الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة". (4)

ولاشك أن المرأة تعشق التجميل والتزين منذ صغرها، ومحبة الإطراء لجمالها وزينتها غريزة فيها - وهذا أمر مشروع لها - فإن ظهرت بزيتها لغير زوجها فإنها هتكت ما بينها وبين الله، وارتكبت المحذور. والحافظ ابن أبي الدنيا خصص باباً في تحفر المرأة في بيتها، وتركها الزينة لغير بعلها، أورد فيه عدة أحاديث وآثار، فروى عن عائشة رضي الله عنها قالت "دخلت امرأة من مزينة المسجد، ترفل في زينتها، ورسول الله ﷺ جالس فقال: يا أيها الناس، انهوا نسائكم عن لبس الزينة والتبختر في المساجد، فإن بني إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نسائهم الزينة يتبخترون في المساجد". (5)

وأورد مثله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال "سألني رسول الله ﷺ عن شيء، قال: أي شيء خير للنساء؟ فلم أدر ما أقول، فذكرت ذلك لفاطمة، فقالت: ألا قلت له خير

(2) المصدر نفسه: 722/2. الحديث أورده الحاكم في المستدرک: 206/2.

(3) المصدر نفسه: 723/2. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 4/312.

(4) رواه مسلم: 2/1090.

(5) العيال: 584/2. الحديث رواه ابن ماجه: 2/1326.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

للنساء أن لا يرين الرجال ولا يروهن. قال: فذكرت قول فاطمة للنبي ﷺ فقال: إنها بضعة مني رضي الله عنها ⁽¹⁾.

يتبين من النصوص التي اختارها الحافظ ابن أبي الدنيا في حقوق الزوج على زوجته أنه قد استخدم ألواناً أدبية في التعبير عن مضمون الموضوع الذي أراده. ففي بعض الروايات استعمل المحاورة التي بنيت على التصريح في العبارة، كما في رواية المرأة التي سألت النبي ﷺ عن جهاد المرأة. كما استعمل مع التصريح الإيجاز والاختزال في العبارة، وهذا واضح في قول النبي ﷺ (طاعة المرأة لزوجها تعدل ذلك) وقد أوجز في التعبير عن جملة أعمال تؤديها المرأة لترقى إلى الجهاد وذلك بطاعة زوجها فقط.

كما استعمل الكناية، وذلك للمبالغة في حق الزوج ولبیان أهميته بالنسبة للنساء. وهذا كائن في الرواية (لو كان من قرنه إلى مفرق رأسه قرحة تتفجر بالقيح والصدید، ثم استقبلته فلحسته، ما أدت حقه)

● حقوق الأبناء على الآباء:

إن الأبناء ثمرة الحياة الزوجية، فهم أمانة الله في أعناق الوالدين، والآباء مسئولون عنهم، فإن أحسنوا تربيتهم كانت لهم المثوبة، وإن أساءوا تربيتهم استوجبوا العقوبة. فالحافظ ابن أبي الدنيا تناول في مرويّاته أهم القضايا التربوية بصورة شمولية، الأسرية منها والمجتمعية في أعداد نشء صالح طيب يستمد سيرته من سيرة القدوة الحسنة الصالحة، وقد نال المولود حظاً وافراً في عمل الحافظ ابن أبي الدنيا في كتابه (العيال) فأنشأ له العديد من الأبواب الواسعة التي بحث شؤون المولود من مولده حتى وفاته، كالعدل بين الأولاد والنفقة عليهم، وأمر الصبيان بالصلاة وتعليمهم القرآن، وغيرها من الأبواب التي جمعت المسائل والقضايا الهامة في أمور الطفولة وحقوق الأولاد.

(1) المصدر نفسه: 593/2. لم أتمكن من تخريج الحديث. وقال محقق كتاب العيال: أورده السيوطي في جمع الجوامع: 154/2.

ومن هذه الحقوق:

♦ العدل بين الأبناء والتسوية بينهم:

إن عدم العدل بين الأبناء وإظهار المفاضلة بينهم في التعامل، والحب والعطفة خطر عظيم، يهدد الكيان النفسي لهم، وينمي الأحقاد والتحاسد بينهم، هذا ما لمسناه في إشارات الحافظ ابن أبي الدنيا بشواهدة العديدة من الأحاديث والآثار على نحو ما أورده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إعدلوا بين أولادكم في النحل، كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللفف" ⁽¹⁾ وفي رواية أخرى "أن بشير بن سعد جاء بالنعمان بن بشير إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نلخت ابني هذا العبد، فقال رسول الله ﷺ : وكل ولدك نلخت ؟ قال: لا، قال: فارده" ⁽²⁾ وأورد عن الحسن قال "بيننا رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ جاء صبي، حتى انتهى إلى أبيه في ناحية القوم، فمسح رأسه وأقعده على فخذه اليمنى، قال فلبث قليلاً فجاءت ابنه له حتى انتهت إليه، فمسح رأسها وأقعدها في الأرض، فقال رسول الله ﷺ فهلا على فخذك الأخرى ؟ فحملها على فخذه الأخرى فقال ﷺ : الآن عدلت" ⁽³⁾

كما أشار الحافظ إلى أخلاق وسلوك السلف في طريقة معاملتهم لأبنائهم في التسوية وعد التمييز بينهم، وفي ذلك أورد عن إبراهيم النخعي ⁽⁴⁾ قال "كانوا يستحبون أن يسووا بين أولادهم حتى في القبل" ⁽⁵⁾

وأورد عن عمر بن عبد العزيز أنه "ضم أبنأ له وكان يحبه، فقال: يا فلان، والله إني لأحبك، وما أستطيع أن أوثرك على أخيك بلقمة" ⁽⁶⁾ كما أورد عن رجل من طيء قطع قميصاً له، ففضلت منه فضلة، وهي تدعى الجببية ، فقطعها لأبن له صغير وقال شعراً :

قطعت له الجببية من قميصي وأثرته الصغير على الكبير

(1) العيال: 172/1. الحديث رواه مسلم: 3/ 1242.

(2) المصدر نفسه: 175/1. الحديث رواه مسلم: 3/ 1242.

(3) المصدر نفسه: 173/1. الحديث أورده الهيئمي في مجمع الزوائد: 8/ 156.

(4) هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي الفقيه الثقة. ت 96هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 1/ 95.

(5) العيال: 174/1.

(3) المصدر نفسه: 177/1.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وكل بني في التقريب محندي سواء لو قدرته على الكثير⁽¹⁾

ففي هذه النصوص يصور لنا ابن أبي الدنيا حقيقة العدل بن الأبناء من قبل الآباء، كالميزان الذي يحمل كفتين لا يترجح أحدهما على الآخر بكم أو كيف، إنما الضابط فيه هو البتة. ويتجلى هذا في رواية الرجل الذي وضع أحد أبنائه على أحد فخذه، وأرشده النبي ﷺ إلى أن يضع ابنته على فخذه الثاني، ثم أشار إليه الآن قد عدلت. فقد جاءت الصورة في الرواية بأحلى معالمها ومصرح بها دون تلويح أو تلميح، مما يوصل المقصود إلى المتلقي بأقرب وأسهل أسلوب. كما اختار بن أبي الدنيا الرواية التي تتضمن الاستعارة في بعض ألفاظها، وهذا كائن في الرواية التي جاء فيها (وكل ولدك نخلت) ومعنى نخلت: أعطيته عطية النخل.⁽²⁾

♦ النفقة على العيال:

من حقوق الأبناء التي أشار إليها ابن أبي الدنيا النفقة على العيال، فإننا نجده حينما يتحدث عن النفقة يحرص على معالجة هذا الموضوع من جوانبه كافة، فنراه يبحث المسؤولية في الإعالة، والتدرج في تحمل المسؤولية، مع التأكيد على أولية الإنفاق، ومراعاة الأهم قبل غيره، فأورد في ذلك عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "كفى المرء من الإثم أن يضيع من يقوت".⁽³⁾ وأورد مثله عن أبي هريرة أنه قال "يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل، وأبدأ بمن تعول".⁽⁴⁾ وأورد عن جابر رضي الله عنه قال "أعتق رجل من بني عذرة عبداً عن دبر"⁽⁵⁾ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ألك مال غيره؟ قال: لا، فقال رسول الله: من يشتريه مني؟ فاشتره نعيم بن عبد الله العدوي بثمانمائة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه، فقال: ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل شيء عن ذي قرابتك

(1) المصدر نفسه: 180/1.

(2) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: 795. والنهاية في غريب الحديث: 5/ 29.

(3) العيال: 130/1. الحديث أورده الحاكم في المستدرک: 4/ 545.

(4) المصدر نفسه: 136/1. الحديث أورده الحاكم في المستدرک: 1/ 574.

(5) المراد بالدبر: أي علق عتق العبد بموته، فقال: أنت حر يوم أموت.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

فهكذا وهكذا، يقول بين يديك وعن يمينك وعن شمالك". (1) ثم أشار الحافظ ابن أبي الدنيا، إلى أن الأب لا يكتفي في كفالتة لأولاده في وجوده بينهم فحسب، بل يتجاوز اهتمامه وحرصه عليهم حتى بعد وفاته، فأورد في ذلك عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له " إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة ". (2)

ولا شك أن هذه المسؤولية في الإعالة والإنفاق، تستلزم العمل والكدح، والسعي والتحصيل، فقد أشار ابن أبي الدنيا إلى ما كان يتوَصَّى به السلف، فقد كتب سفيان الثوري إلى أخيه " أما بعد، فأحسن القيام على عيالك، وليكن الموت من بالك، والسلام ". (3) وأورد عن سفيان الثوري أيضاً أنه كان يوصي أحد أصحابه فيقول " عليك بعمل الأبطال والكسب الحلال والإنفاق على العيال ". (4)

♦ تعليم الأبناء وتأديبهم:

ومن الحقوق الواجبة على الآباء تجاه الأبناء تعليمهم وتأديبهم، والأصل في ذلك قول ﷺ " كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسؤول عنهم ". (5) وقد فسر الإمام علي رضي الله عنه قوله تعالى " قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا " قال: علموهم وأدبوهم ". (6)

وفي تربية الأولاد وتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة وإرشادهم لما فيه نفعهم وفلاحهم، فأورد في ذلك عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " أحبوا أولادكم وأحسنوا

(1) العيال: 144/1. الحديث رواه البخاري: 6/2548.

(2) المصدر نفسه: 149/1. الحديث رواه مسلم: 3/1251.

(3) المصدر نفسه: 159/1.

(4) المصدر نفسه: 158/1.

(5) المصدر نفسه: 1/491.

(6) المصدر نفسه: 1/495.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

أدبهم".⁽¹⁾ وأورد عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع".⁽²⁾

ومن شواهد في التربية والسلوك الذي يتبعه المؤدب أو المعلم لتلاميذه قول عبد الملك بن مروان لمؤدب بنيه " علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجالس بعم العلماء والأشراف، فإنهم أحسن شيء أدياً وأساء شيء رغبة، وجنبهم الحشم، فإنهم لهم مفسدة، وحسن شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا و يشجعوا، وروهم الشعر يستحوا وينجدوا، ومرهم فليستاكوا، وليمصوا الماء مصاً لا يعبوا عباً، فإن العب يورث الكباد".⁽³⁾

والحافظ ابن أبي الدنيا اعتنى بثقافة الطفل وتكوينه، فركز على الجانب السلوكي له، وضرورة تعويده على الصلاة والصيام لينضبط سلوكه وفق منهج الإسلام، فخصص باباً لتعليم الصبيان الصلاة والصيام، وأورد فيه عدة شواهد من الأحاديث والآثار من ذلك قوله ﷺ " مروا صبيانكم بالصلاة في سبع سنين، واضربوهم عليها في عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع".⁽⁴⁾ وأورد مثله عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت " كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نصوم عاشوراء، فكنا نصومه، ونصوم صبياننا، ونعمل لهم اللعب من العهن، ونذهب بهم إلى المسجد، فإذا بكوا أعطيناهم إياها".⁽⁵⁾

وقد اعتنى السلف بتربية أولادهم على حب الصلاة، والتعود عليها، والالتزام بها فأورد الحافظ عن هشام بن عروة عن أبيه " أنه كان يأمر بنيه بالصيام إذا أطاقوه، وبالصلاة إذا عقلوا".⁽¹⁾ وأورد مثله عن ابن عمر رضي الله عنهما " أنه كان يعلم الصبي الصلاة إذا عرف يمينه من شماله".⁽²⁾

(1) المصدر نفسه: 500/1. لم أتمكن من تحريجه. وقال محقق كتاب العيال: حديث ضعيف، في إسناده سعيد بن عمارة وهو ضعيف، والنعمان بن الحارث لم أجد من ذكره.

(2) المصدر نفسه: 501/1. لم أتمكن من تحريجه. وقال محقق كتاب العيال: إسناده ضعيف، لأن فيه يحيى بن يعلى الأسلمي الكوفي، وناصح بن عبد الله التميمي الحائك، صاحب سماك بن حرب، وكلاهما ضعيف.

(3) المصدر نفسه: 513/1. والمراد بالعب: شرب الماء بلا تنفس دفعة واحدة، والمراد بالكباد: مرض يصيب الكبد.

(4) المصدر نفسه: 467/1. الحديث أورده الحاكم في المستدرک: 317 / 1.

(5) المصدر نفسه: 475/1.

(1) المصدر نفسه: 470/1.

(2) المصدر نفسه: 472/1.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

كما ركز الحافظ على تكوين الطفل علمياً، فأنشأ باباً في تعليم الأصاغر القرآن وأكد العناية والاهتمام بتعليمهم العلم، فأورد في ذلك جملة من الآثار منها ما رواه عن ثابت بن العجلان ⁽³⁾ قال " إن الله عز وجل يريد أهل الأرض بالعذاب، فإذا سمع أصوات الصبيان يتعلمون الحكمة صرفه عنهم، قال: والحكمة القرآن ". ⁽⁴⁾ وأورد مثله عن سعيد بن العاص ⁽⁵⁾ قال " إذا علمت ولدي القرآن وأحججته، وزوجته، فقد قضيت حقه، وبقي حقي عليه ". ⁽⁶⁾ وفي تعليم الأصاغر العلم أورد عن إسماعيل بن رجاء ⁽⁷⁾ أنه كان " يجمع صبيان الكتاب يحدثهم حتى لا ينسى حديثه ". ⁽⁸⁾

أهتم ابن أبي الدنيا بجانب التعليم للأبناء اهتماماً كبيراً، ويؤيد ذلك كثرة روايته لما يدور في جانب التعليم من مواقف في عصر النبوة والعصور التي بعده. ولم يترك موقفاً نبوياً ذكر في تعليم الصبيان إلا أوردته، أو موقفاً ورد بعد عصر النبوة إلا أتى به زيادة في التبصرة والإقناع للمربين وإلهاماً لهم في حسن التمسك بالهدي النبوي وما بعده من تجارب الصحابة والتابعين. وتتجلى في ضوء النصوص التي يوردها إشارة الرقائق للمضمون الذي يقصده. ففي النصوص المذكورة قصد الاهتمام بتعليم الأبناء، ورفع منزلته، بحيث لا تفرق عن الصلاة والصدقة، وألبس هذا المقصود حلة أدبية رفيعة تزيحاً للقلوب من أجل السير على المنهج النبوي القويم.

♦ العطف والرأفة بالأبناء والتلطف معهم:

من جملة ما يجب على الآباء من حقوق لأبنائهم الرأفة والرحمة بهم، وأشعارهم بدنيء العاطفة، وحرارة الحب. ولكي ينشأ الأبناء نشأة سوية في مستقبلهم وفي حياتهم كلها

(3) هو ثابت بن عجلان الأنصاري أبو عبد الله الحمصي نزيل إرمينية صدوق. ينظر: تقريب التهذيب: 1/ 132.

(4) العيال: 1/ 481.

(5) هو سعيد بن العاص بن أمية الأموي. قتل أبوه ببدر وكان عمره يوم موت النبي ﷺ تسع سنين. وذكر في الصحابة. ينظر:

تقريب التهذيب: 1/ 237.

(6) العيال: 1/ 483.

(7) هو ابن ربيعة الزبيدي أبو إسحاق الكوفي من الثقات. ينظر: تقريب التهذيب: 1/ 107.

(8) المصدر نفسه: 2/ 801.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

يحتاجون إلى أن يعاملوا معاملهم رقيقة لطيفة، فالبناء العاطفي له أهمية خاصة في بناء شخصية الأبناء وتكوينها، والحافظ ابن أبي الدنيا أهتم بهذا الجانب التربوي، فأورد له عدة أبواب حواها كتابه (العيال) ضمنها شواهد من الأقوال والأشعار، تبين أهمية عطف الآباء وحبهم لأبنائهم، فروى في ذلك عن جعفر الصادق "كان له ابن يحبّه حباً شديداً، فقليل ما بلغ من حبك له؟ قال: ما أحب أن لي ابناً آخر فيُنشَرُ له في حُبي".⁽¹⁾

وأورد مثله عن رجل قال في ابنه وهو حاج:

أطبقتُ للنوم جفنًا ليس ينطبقُ وبنتُ والدمع في خديك يستبقُ
لم يسترح من له عينٌ مُورقةٌ وكيف يعرف طعم الراحة الأرقُ
محمد وأخوه فتتا كبدِي إذا ذكرتهما والعيس تنطلقُ
طفلان حلّ بقلبي من فراقهما⁽²⁾ ما كنتُ أخشى عليه قبل نفتقُ
قلبي رقيق تلظف في جوانبه نار الصباة حتى كاد يحترقُ
وددت لو تم لي حج بقربهما ما كل ما يشتهي المرء يتفقُ
لا يعجب الناس من وجدي ومن قلبي إن المشوق إلى أحبابه قلقُ⁽³⁾

وإظهار الحب للأبناء وتقبيّلهم له دور فعال في تحريك المشاعر والعواطف، والشعور بالارتباط الوثيق، وتشديد علاقة الحب والمودة بين الآباء والأبناء، وقد وضّح الحافظ ابن أبي الدنيا هذا السلوك الرفيع بجملة من الأحاديث والآثار، فأورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال "أبصر الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل حسيناً، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحداً منهم، فقال النبي ﷺ: إنه من لا يرحم لا يُرحم".⁽¹⁾ وأورد مثله عن بريدة رضي الله عنه يقول "كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، فوضعهما بين يديه، وقال، صدق

(1) المصدر نفسه: 315/1.

(2) أصل هذا الصدر هو: طفلان حل من قلبي فراقهما وأصلحناء لسلامة الوزن والمعنى.

(3) العيال: 328/1.

(1) المصدر نفسه: 340/1. الحديث رواه البخاري: 5/2235.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

الله: إنما أموالكم وأولادك فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان، ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما". (2)

ومن أساليب التلطف والتسوية التي كان يستخدمها رسول الله ﷺ مع أصحابه، ما أورده الحافظ ابن أبي الدنيا عن أنس رضي الله عنه قال "كان رسول الله ﷺ يأتي أبا طلحة كثيراً، فجاء يوماً وقد مات نغير لأبنة، فوجده حزينا مكثراً، فسألهم عنه فأخبروه فقال له رسول الله ﷺ يا أبا عمير ما فعل النغير ؟". (3) فهو يكتيه ويواسيه ويدهبه بهذه الصورة الرائعة، و العبارة يراد بها التلطف والدعابة.

● حقوق الآباء على الأبناء:

إن حق الآباء على الأبناء من أجل الحقوق وأعظمها بعد حق الله عز وجل، قال تعالى "وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا". (4) وقال عز وجل "وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا". (5) وهذه الحقوق الواجبة على الأولاد لآبائهم تتمثل في بر الآباء والإحسان إليهم، والأدب معهم، وطاعتهم بالمعروف، ومن أرضاهما فقد أرضى الله تعالى، ومن أسخطهما فقد أسخطه سبحانه وتعالى.

ولقد اعتنى الحافظ ابن أبي الدنيا بهذا الجانب وعقد له باباً ضمنه عدة شواهد من الأحاديث والآثار، فأورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ "ما من رجل بارٍّ ينظر إلى والديه - أو والدته - نظرة رحمة إلا كتب الله تلك النظرة حجة مقبولة مبرورة، قالوا يا رسول الله: وإن نظر في اليوم مائة مرة؟ قال: الله عز وجل أكبر من ذلك". (1) وأشار الحافظ إلى أن الأبناء مهما قاموا بالخدمة لوالديهم فلا يؤدون حقهم، فأورد في ذلك عن رجل جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال "يا أمير المؤمنين، أُمي عجوز كبيرة أنا مطيتها، أجعلها على ظهري، وأنحي عليها بيدي، وألي منها مثل ما كانت تلي مني،

(2) المصدر نفسه: 341/1. الحديث أورده الحاكم في المستدرک: 1/ 424.

(3) المصدر نفسه: 400/1. الحديث رواه البخاري: 5/ 2270. والنغير طائر يشبه العصفور.

(4) سورة النساء: الآية 36.

(5) سورة الإسراء: الآية 23.

(1) مكارم الأخلاق: 162. لم أتمكن من تخريجه. وقال محقق كتاب مكارم الأخلاق: أورده السيوطي في الجامع الصغير وعزاه للرافعي ورمز لضعفه.

﴿ الدراسة الموضوعية للرفائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

أوأديت شكرها ؟ قال: لا. قال: لم يا أمير المؤمنين ؟ قال: إنك تفعل ذلك بها وأنت تدعوا الله عز وجل أن يميتها، وكانت تفعل ذلك بك وهي تدعو الله عز وجل أن يطيل عمرك ". (2)

وأورد مثله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالكعبة إذا رجل يحمل أمه وهو يقول :

أحمل أمي وهي الحماله ترضعني الدرة والعلالة

هل يجزيّن ولد فعالة

فقال عمر رضي الله عنه: لا ، ولا رضة واحدة ". (3)

وأشار الحافظ إلى أن بر الوالدين سبب من أسباب إطالة العمر، وزيادة الرزق. فأورد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أحب أن يمد الله في عمره ويزيد في رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه ". (4) وبر الوالدين ليس مقصوداً على برهما في أثناء حياتهما، وإنما هو ممتد إلى ما بعد الوفاة، فقد أورد الحافظ حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من زار قبر والديه أو أحدهما في كل جمعة مرة، غفر له وكتب برّاً ". (5)

ولم يغفل الحافظ ابن أبي الدنيا جانب التحذير من عقوق الوالدين، وهو الإيذاء لهم بالقول أو بالفعل، أو غيرهما، فأورد عن أبي إسحاق الفزاري قال لعبد الله بن المبارك " يا أبا عبد الرحمن، كان رجل من أصحابنا جمع من العلم أكثر مما جمعت وجمعت، فاحتضر، فشهدته فقلت له: قل لا إله إلا الله، فيقول: لا أستطيع أن أقولها ثم تكلم فيتكلم، قال ذلك مرتين، فلم يزل على ذلك حتى مات! قال فسألت عنه، فقيل: كان عاقاً بوالديه، فظننت أن الذي حرم كلمة الإخلاص لعقوقه بوالديه ". (1)

وأورد مثله دعاء أبي منازل علي ابنه منازل الذي أخذ عطاءه ، فأنشد يقول:

جزت رحم بيني وبين منازل جزاء كما يستنجز الدين طالبه

(2) المصدر نفسه: 165.

(3) المصدر نفسه: 170.

(4) المصدر نفسه: 178. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 8 / 136.

(5) المصدر نفسه: 179. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 3 / 59.

(1) المختصرين: 176.

﴿ الدراسة الموضوعية للرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وربيته حتى إذا ما هو استوى
 كحبراً وسأوى لامل الرمح حاربه
 تظلمني مالي كذا ولوى يدي
 لوى يده الله الذي هو خالجه
 فأصبح منازل ملوية يده " (2).

نجد أن ابن أبي الدنيا في هذا الجانب التربوي من حقوق الآباء على الأبناء جمع بين أسلوب الترغيب والترهيب في رقائقه. فأما الترغيب ففي شقه الأول من المرويات التي ذكرناها، وأما الترهيب ففي شقه الثاني. وكأن هذين الأسلوبين يعدان ناجعين في مجال الرقائق في الحقوق والواجبات، وقد شمل في هذه المرويات كل ما يتعلق ببر الوالدين بصورة أفقية تمتد في الحياة، وعمودية تجتازها إلى الممات، ويعد هذا من جمالية أدب الرقائق.

الفصل الثاني

الألوان الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا

ويتضمن: مدخلاً ومبحثين.

المبحث الأول:

❖ التوقيعات الموجزة والحكمة.

❖ الأحاديث.

❖ الوصايا.

❖ الدعاء والمناجاة.

المبحث الثاني:

❖ الخطب.

❖ الرسائل.

❖ المحاورات.

❖ الرؤى.

مدخل:

من خلال تتبعي واستقراي لموضوعات الرقائق في الفصل الأول، لمصنّفات ابن أبي الدنيا، ظهرت لي ألوان فنية تشكّل ظاهرة بارزة في أدب الرقائق عند ابن أبي الدنيا، مما دعاني إلى دراستها.

المبحث الأول.

• التوقيعات⁽¹⁾ الموجزة والحكمة:

التوقيعات من أكثر الأنواع الفنية في أدب الرقائق، والمتتبع لمرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا يلفت انتباهه الكم الهائل من تلك الأقوال والعبارات للعلماء والوعاظ والمربين، المتسمة بالقصر والإيجاز، فهي تُكوّن ظاهرة مهمة في رقائق ابن أبي الدنيا، لأنها ضمت مادة ثرية كبيرة، عبروا فيها عن أفكارهم وتجاربهم وخواطهم، على نحو موجز مركز، لأن الإيجاز في ما يرى البلاغيون عبرة عن "تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز".⁽²⁾ أو كما حدده السكاكي بقوله "الإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط".⁽³⁾ وعبارات أدب الرقائق عند ابن أبي الدنيا شأنها شأن العبارات بعامة، بسيطة الألفاظ والتراكيب، وقد تُكوّن جملة واحدة وقد تزيد على نحو قول سفيان الثوري "أقلّ معروف الناس يقلُّ عيبك".⁽⁴⁾ وعلى نحو قول سعيد بن جبيرة⁽⁵⁾ "التوكل على الله عز وجل جماع الإيمان".⁽⁶⁾ وهذه العبارات ذات عمق وتركيز لفظي، معبرة عن معانيها بألفاظ قليلة، يكاد ينطبق عليها مصطلح (جوامع الكلم) في أنها تؤدي معانيها على نحو لا تؤديه جملة أخرى.

وكثيراً ما أورد ابن أبي الدنيا أقوالاً وعبارات للعلماء والزهاد تفسيراً لأية من القرآن بعد قراءتهم إياها أو سماعهم لها، فأورد عن قتادة⁽⁷⁾ مفسراً معنى (تصعير الخد) الواردة في قوله

(1) التوقيع: هو العبارة المركزة.

(2) النكت في أعجاز القرآن، الرمالي: 70.

(3) مفتاح العلوم: 133.

(4) التواضع والحمول: 115.

(5) هو سعيد بن جبيرة الأسدي الكوفي ثقة ثبت فقيه إمام في التفسير قتله الحجاج سنة 95هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 1/ 234.

(6) التوكل على الله: 32.

(7) هو قتادة بن دعامة بن قنادة السدوسي أبو الخطاب البصري ثقة ثبت يقال ولد أكمه. توفي سنة بضع عشرة ومئة. ينظر:

تقريب التهذيب: 1/ 453.

تعالى " وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ " (1) قال " هو الإعراض أن يكلمك الرجل وأن معرض عنه " (2) وأورد مثله قول الربيع بن خثيم (3) مفسراً معنى (مخرجاً) الواردة في قوله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) (4) قال "المخرج من كل ما ضاق على الناس" (5) وأورد مثله عن الفضيل بن عياض (6) مفسراً معنى (أحسن عملاً) الوارد في قوله سبحانه وتعالى " لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا " (7) قال " أخلصه وأصوبه، قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة " (8)

وأكثر أقوالهم وعباراتهم تكون مستوحاة مما أثارته الآيات الكريمة في نفوسهم، وهذا ما نجده في عبارة حبان بن أبي جبلة (9) التي اثاره في نفسه معنى قوله تعالى " فَصَبْرٌ جَمِيلٌ " (10) قال " صبر لا شكوى فيه " (11)

وأورد مثله عبارة الحسن البصري في قوله تعالى " وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا " (12) قال " حلماء، وإن جهل عليهم لم يجهلوا " (13)

ومع أن القصر والإيجاز هو الصفة المتميزة للأقوال والعبارات في رقائق ابن أبي الدنيا في الأغلب، إلا أنها قد تمتد وتتسع إلى بضع جمل، حتى تستوفي المعنى، من ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال " ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم

(1) سورة لقمان: 18.

(2) التواضع والحمول: 208.

(3) هو الربيع بن خثيم بن عائد بن عبد الله بن موهب بن منقذ الثوري أبو يزيد الكوفي، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مراسلاً، تابعي ثقة. ينظر:

تقريب التهذيب: 1/ 206.

(4) سورة الطلاق: الآية 2.

(5) الفرج بعد الشدة: 50.

(6) هو فضيل بن عياض بن مسعود التميمي الإمام الزاهد الثقة العابد المشهور. ت 187هـ. ينظر تقريب التهذيب: 1/ 448.

(7) سورة هود: الآية: 7، سورة الملك: الآية 2.

(8) الإخلاص والنية: 50.

(9) هو حبان بن أبي جبلة المصري، مولى قريش ثقة روى عن طائفة من الصحابة ت 122هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 1/ 149.

(10) سورة يوسف: الآية 18.

(11) الصبر: 83.

(13) الحلم: 24.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

حلمك، ويكثر علمك، وأن تنادي الناس في عبادة الله، فإذا أحسنت حمدت الله وإذا أسأت استغفرت الله". (1)

وما رواه عن لقمان الحكيم عند محاولته بيان حقيقة الإيمان، أنه يسعى إلى شيء من التفصيل يتطلبها الإيفاء للفكرة في عباراته التي قال فيها " الإيمان سبع حقائق، ولكل حقيقة منها حقيقة، اليقين، والمخافة، والمعرفة، والهدى، والعمل، والتفكر، والورع، فحقيقة اليقين الصبر، وحقيقة المخافة الطاعة، وحقيقة المعرفة الإيمان، وحقيقة الهدى البصيرة، وحقيقة العمل النية، وحقيقة التفكر الفطنة، وحقيقة الورع العفاف ". (2)

وأورد مثله عن علي ابن أبي طالب عليه السلام في عباراته في بيان حقيقة الصدق وذم الكذب، قال فيها " زين الحديث الصدق، وأعظم الخطايا عند الله عز وجل اللسان الكذوب، وشر العذيلة، عذيلة أحدكم نفسه عند الموت، وشر الندامة، ندامة يوم القيامة ". (3) وغير ذلك من العبارات الكثير. (4)

وعلى هذا فالعبارات في رقائق الحافظ ابن أبي الدنيا عبارة عن مواعظ خطابية قصيرة، تتكون من جملة واحدة، أو من جمل معدودة تقتضيها طبيعة الفكرة من غير إطالة مملّة، فالعبارات الرقيقة في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا أشبه بالحكم التي " لا تخرج عن النظرة الصائبة إلى الحياة المنبعثة من تجارب عميقة، استندت إلى سير أحداث سابقة ". (5)

فالعبارات التي انتقاها الحافظ ابن أبي الدنيا يصلح أكثرها لأن يجري مجرى الأمثال في بناءها وإيجازها على أنها بالحكم ألصق، فالعلماء والوعاظ قد سردوا أقوالهم وعباراتهم من خلال ما لمسوه من تجارب وخبرات في مسيرة حياتهم، ولذلك كانوا يعبرون بجمل قصيرة موجزة ذات دلالة موحية بمعاني كبيرة مما هو متضمن معنى الحكمة التي " هي الكلام المعقول

(1) المصدر نفسه: 54.

(2) اليقين: 59.

(3) مكارم الأخلاق: 116.

(4) للمزيد من الأمثلة ينظر كتاب قضاء الحوائج: 56، 94، والنواضع: 114، 115، 128، 136، 242، 154، و اليقين

53، 54، 57، 62، 64.

(5) أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام، محمد سعيد حسين مرعي الجبوري: 17.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

المصون عن الحشو".⁽¹⁾ وبمعنى آخر هي " فن من فنون القول، يعتمد على الدقة والتعبير والأداء شكلاً ومضموناً، فمن حيث المضمون تأتي الحكمة في شكل فكرة هي نتاج وحي أو ثقافة أو ملاحظة".⁽²⁾ ومن المناسب إيراد بعض النماذج من العبارات مما يشبه الحكم، فأورد الحافظ ابن أبي الدنيا عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال " كفى بالمرت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً".⁽³⁾ وأورد مثله عن يزيد بن معمر، قال " العلم في الصغر كالنقش على الحجر".⁽⁴⁾ وأورد مثله قول الحسن البصري " ابن آدم، رب أخ لك لم تلده أمك".⁽⁵⁾ وأورد مثله قول أحد الأعراب لأبن عمه " إن سرك من دمك فلا تضعه إلا عند من تثق به".⁽⁶⁾ وغير ذلك كثير.⁽⁷⁾

(1) التعريفات: 66.

(2) دفاع عن فن القول، عبد الكريم غالب: 177.

(3) اليقين: 62.

(4) العيال: 2/ 800.

(5) الإخوان: 133.

(6) الصمت وآداب اللسان: 453.

(7) للمزيد من الأمثلة ينظر: كتاب قصر الأمل: 46، 74، 76، 80، 82، الصمت وآداب اللسان: 366، 386، 442،

● الأحاديث:

لابد من تحديد للكلمة الحديث أولاً، حتى تتضح المعالم، فقد عرفه علماء مصطلح الحديث بأنه: ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من أقوال أو أفعال أو تقارير أو صفات. والذي يعيننا من هذا أقواله ﷺ .

فالحديث الشريف وثيقة نثرية، نموذج إنشائي للعهد النبوي، استمد منه العلماء والوعاظ أدبهم في التربية وتوجيه الناس، ففي كتب الحديث نصوص أدبية، هي من روائع البيان في تراثنا الإسلامي، وما أجمل ما قال فيه الجاحظ " هو الكلام الذي قل عدد حرفه، وكثرت معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف.....، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب والوحشي، ورغب عن المهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام.....، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم.....- ثم قال - ولعل بعض من يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره. كلا والذي حرم التزيين على العلماء، وقبح التكلف عند العلماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه ". (1)

وأما أبو حيان فيصف بلاغة الحديث النبوي فيقول " والثاني سنة رسول الله، فإنها السبيل الواضح والنجم اللائح، والقائد الناصح، والعلم المنصوب، والأهم المقصود، والغاية في البيان، والنهاية في البرهان، والمفزع عند الخصام، والقدرة لجميع الأنام ". (2)

(1) البيان والتبيين: 17/2 - 18.

(2) البصائر والذخائر: 8/1.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

فالأحاديث النبوية تعد من الأنواع الفنية البارزة في رقائق الحافظ ابن أبي الدنيا، وهي تكون مادة ثرية كبيرة، وقد حفظت لنا مصنفاته نصوصاً كثيرة منها، تتسم بالبساطة في تصوير الحدث من غير تعقيد، وبإيجاز دقيق مع وضوح في العبارة، وهذا ما نجده في قوله ﷺ عن أنس قال " رأى النبي ﷺ رجلاً قد اتخذ قبلاً⁽¹⁾ من حديد فقال النبي ﷺ أما أنت فقد أطلت الأمل، وزهدت في الأجر، وكرهت الحسنات. إن أحذك إذا انقطع شسعه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، كان عليه من ربه الصلاة، والهدى، والرحمة، فذلك خير له من الدنيا ".⁽²⁾ وأورد مثله عن أبي هريرة ؓ قال " ضرب رسول الله ﷺ منكبي أو على فخذي فقال: يا أبا هريرة كيف أنت إن أدركت ثلاثاً، وأعيذك بالله أن تدركهم، قلت: ما هي بأبي أنت وأمي ؟ قال: طول البنيان، وإمارة الصبيان، وشدة الزمان ".⁽³⁾

وأحاديثه عليه أفضل الصلاة والسلام، ذات تركيز في الألفاظ، وعمق في الأفكار، فكلامه ﷺ كلما زدته تفكيراً زادك معنى، وإذا نظرنا إلى معاني أحاديثه ﷺ بشكل عام لوجدنا أن معاني الحديث الواحد عديدة متنوعة. من ذلك ما أورده الحافظ ابن أبي الدنيا عن النبي ﷺ قال " إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون، المتفيهقون، المتكبرون، قالوا يا رسول الله: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون ".⁽⁴⁾ وأورد مثله حديثه ﷺ " بادروا بالأعمال سبعاً، ما تنتظرون إلا فقراً نسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو المسيح، فشر غائب ينتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر ".⁽⁵⁾

(1) القبال من النعال: الزمام الذي يكون بين الإصبع الوسطى والي تليها.

(2) قصر الأمل: 30. الحديث لم أتمكن من تخريجه. وقال محقق كتاب قصر الأمل: أورده السيوطي في الدر المنثور في التفسير المنثور: 157 / 1. نقلاً عن ابن أبي الدنيا.

(3) المصدر نفسه: 178. الحديث أورده الديلمي في الفردوس: 347 / 5.

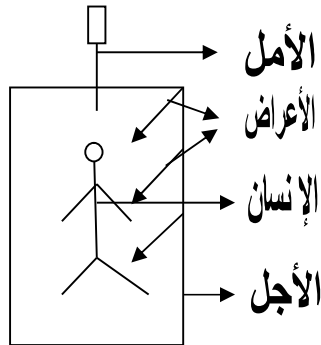
(4) التواضع والحمول: 208. الحديث أورده الترمذي: 370 / 4.

(5) قصر الأمل: 88. و المقصود بالمسيح: أي الدجال الذي يخرج آخر الزمان. الحديث أورده الحاكم في المستدرک: 356 / 4.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وأورد الحافظ ابن أبي الدنيا بعض الأحاديث التي استخدم فيها ﷺ الرسم توضيحاً للمعاني، وترسيخاً للأفكار وإيفاء للمقصود، ومن ذلك ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال " خط لنا رسول الله خطأ مربع، وخط وسطه، وخط خطوطاً هكذا إلى جانب الخط، وخط خطأ خارجاً فقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: لله ورسوله أعلم. قال: هذا الإنسان للخط الذي في وسط الخط، وهذا الأجل محيط به، وهذه الأعراض الخطوط تنهشه، إن أخطأ هذا نهشه ذاك، وذلك الأمل للخط الخارج " (1).

والسمة الغالبة على أحاديثه ﷺ الإيجاز والقصر، فقد أعطي جوامع الكلم وقال: أنا أفصح من نطق الضاد. ومن الكلم الجامعة التي أوردها ابن أبي الدنيا قوله ﷺ " ألا هلك المتنطعون " (2) وقوله ﷺ " الصبر عند أول صدمة " (3) وقوله ﷺ " الحياء من الإيمان " (4) وقوله ﷺ " الصبر رضا " (5) وقوله ﷺ " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ " (6)



(1) قصر الأمل: 34.. الحديث رواه البخاري: 5 / 2359.

وهذا رسم توضيحي للحديث.

(2) الصمت وآداب اللسان: 287. الحديث رواه مسلم: 4 / 2055.

(3) الصبر: 45. الحديث رواه مسلم بألفاظ متقاربة: 2 / 637.

(4) مكارم الأخلاق: 66. الحديث رواه الترمذي: 5 / 11.

(5) الصبر: 41. الحديث أورده الديلمي في الفردوس: 2 / 415.

(6) قصر الأمل: 90. الحديث رواه البخاري: 5 / 2357.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

ومع أن الإيجاز والقص هي الصفة الغالبة على أحاديثه ﷺ إلا أن هناك وفرة من الأحاديث كان يطيل الكلام فيها كلما رأى ضرورة للإطالة، من ذلك ما أورده الحافظ ابن أبي الدنيا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه " إن آخر من يدخل الجنة لرجل يمشي على الصراط، فينكب مرة ويمشي مرة، تسفعه النار مرة، فإذا جاوز الصراط التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله عز وجل ما لم يعط أحد من العالمين، فيرفع له شجرة فينظر إليها، فيقول: يا رب! أدني من هذه الشجرة فأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول: أي عبدي، فلعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها. فيقول: لا يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، والرب عز وجل يعلم أنه يسأله لأنه يرى ما لا صبر له، فيدنيه منها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن منها، فيقول: رب أدني من هذه الشجرة، فيقول له كمثل ذلك، ويسمع أصوات أهل الجنة، فقال: أي رب الجنة، الجنة، فيقول: أي عبدي، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: يا رب أدخلني الجنة، فيقول تبارك وتعالى: عبدي، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: أتهزأ بي وأنت رب العزة؟ قال: فضحك عبد الله حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا تسألوني لما ضحكتم؟ فقال: لم ضحكتم؟ قال: ضحك الرب تبارك وتعالى حين قال (أتهزأ بي وأنت رب العزة) " (1) وهناك أحاديث كثيرة أورده ابن أبي الدنيا (2)

كما أورد الحافظ في مصنفاته وفرة من الأحاديث النبوية، جرت مجرى الأمثال والحكم في بنائها وإيجازها، وتناقلتها الأجيال على مرور الأزمان، من ذلك قوله ﷺ " من لا يرحم، لا يرحم " (3) وقوله ﷺ " المرء كثير بأخيه " (4) وقوله ﷺ " الحديث بينكم أمانة " (5) وقوله ﷺ " بئس أخو العشيرة " (6)

(1) صفة الجنة: 24. الحديث رواه مسلم: 1/ 174.

(2) للمزيد من الأمثلة ينظر: كتاب صفة الجنة: 21، 30، 41، 42، 80، 98، 100.

(3) العيال: 340/1.

(4) الإخوان: 71. أورده العجلوني في كشف الخفاء: 2/ 264.

(5) الصمت وآداب اللسان: 450. الحديث لم أتمكن من تخرجه. وقال محقق كتاب الصمت وآداب اللسان: قال العراقي في تخرجه

أحاديث الأحياء: 3/ 114. رواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلاً.

(6) المصدر نفسه: 411. الحديث رواه مسلم: 4/ 2002.

● الوصايا:

الوصية نوع في " يوجهها الرجل إلى آله أو عشيرته، عند إحساسه بدنو منيته، ليرشدهم فيها إلى الطريق الذي ينبغي لهم أن يسلكوه، والآداب التي ينبغي أن يتحلوا بها" (1) وتقترب الوصية من معنى النصيحة، فهي " قول فيه دعاء إلى صلاح، ونهي عن فساد " (2) ومحور هذه الوصايا " يدور على إثارة المشاعر لفعل الخير، وتجنب الشر، وتوجيه النفوس نحو الله " (3) وغالباً تعتمد الوصايا أسلوب الخطاب، وهدف قائلها التأثير في المستمع، فالوصية كلام يقال، أو يكتب من خليفة، أو قائد، أو زعيم، أو عالم، أو من أحد الوالدين، في أمر من أمور الدنيا أو الدين، وغالباً يكون هذا عند الشعور والإحساس بدنو الأجل، والعزم على الرحلة والفرار، أو غير ذلك.

وتمتاز الوصايا دائماً بجمالها القصيرة وصدق عاطفتها، فalcصر سمة أكثر الوصايا، من ذلك ما أورده الحافظ وصية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، لرجل قال له أوصني، قال " عليك بالصمت، إلا في حق، فإنك به تغلب الشيطان " (4) وأورد مثله وصية رسول الله ﷺ لجرموز الهجيمي (5) عند ما قال لرسول الله ﷺ: أوصني، قال " أوصيك أن لا تكون لعاناً " (6) وكوصية رجل من عبد القيس قيل له أوص، قال: أنذركم سوف. (7)

والوصايا كغيرها من الفنون الأدبية، فقد تكون نثرية فقط، وقد تكون شعرية فقط، وقد تجمع الفنين معاً، فهي شعرية نثرية، وقد يختم الموصي وصيته أو يخللها بأبيات شعرية، تكون أخلد في ذاكرة الآخرين، وأيسر حفظاً، وربما أبلغ تأثيراً، وقد ضمت مصنفات ابن أبي الدنيا بين دفافها قطعاً كثيرة من الوصايا، ولا سيما كتابه (المختصرين) فيعد مدونة مهمة في الوصايا الشعرية والنثرية، ومن المناسب إيراد بعض الأمثلة من الوصايا الشعرية، فقد أورد الحافظ بن

(1) الخطابة في عصرها الذهبي، 11:

(2) المعجم الوسيط: 2/ 933.

(3) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة: 430.

(4) الصمت وآداب اللسان: 248.

(5) البصري له صحبة روى عن علي رضي الله عنه. ينظر: الجرح والتعديل: 2/ 544.

(6) المصدر نفسه: 584. الحديث لم يتمكن من تخريجه. وقال محقق كتاب الصمت: أورده السيوطي في جمع الجوامع: 2/ 344.

(7) المختصرين: 172.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

أبي الدنيا عن رجل " مرض أخ له، فلما حضره الموت دخل عليه فقال: يا أخي، إني قد أرى ما قد نزل بك من الموت، فأوصي بوصية قال: فقال أخوه: ما أوصيك به؟ ثم قال:

كأن الموت يا ابن أبي وأمي وإن طالت حياتك قد أتاك

أتدعى الميتين وأنت حي إذا حي بميت قد نعاك

إذا اختلف الضحى والعصر دأباً يسوق هما المنية أدركاك⁽¹⁾

وأورد عن رجل قال لابنته في مرض موته متمثلاً بقول لبيد:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فقوما فقولا بالذي قد علمتما ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا الشعر

وقولا هو المرء الذي لا صديقه أضاع ولا خان الأمير ولا تحذر⁽²⁾

وأغلب الوصايا التي أوردتها الحافظ ابن أبي الدنيا في كتبه، مسبوقة بطلب الوصية من العالم أو المري، على نحو ما نقرأه في هذه الوصية التي أوردتها الحافظ عن رجل جاء إلى أبي الدرداء عليه السلام فقال " أوصني، فقال: أذكر الله في السراء يذكرك في الضراء، وإذا ذكرت الموتى فاجعل نفسك كأحدهم، وإذا أشرفت نفسك على شيء من الدنيا فانظر إلى ما يصير ".⁽³⁾ وأورد مثله عن رجل قال لسلمان الفارسي عليه السلام " أوصني ؟ قال : لا تكلم. قال: وكيف يصير رجل على أن لا يتكلم؟ فقال: فإن كنت لا تصبر على الكلام فلا تتكلم إلا بخير، أو اصمت ".⁽⁴⁾ فهذا السياق هو الغالب على رواية أكثر الوصايا في مرويات ابن أبي الدنيا.⁽⁵⁾

(1) المختصرين: 187.

(2) المصدر نفسه: 195. وهذه من الوصايا الثرية الشعرية، وأولها عن العريان بن هيثم قال: كان أبي عثمانياً، وشبث بن ربعي علوياً، وكانا متصافين، فلما مرض شبث مرضه الذي توفي فيه بعثني أبي إليه، فدخلت عليه وعنده ابنتاه تسندانة، فقلت: أبي يقرأك السلام ويقول: كيف تجددك ؟ قال أجديني في آخر يوم الدنيا، وأول يوم من الآخرة، فأقريء أباك السلام، ثم التفت إلى ابنتيه، فقال متمثلاً بقول لبيد..... الشعر .

(3) الفرج بعد الشدة: 104.

(4) الصمت وآداب اللسان: 125.

(5) للمزيد من الأمثلة ينظر: كتاب الصبر: 106، 124، و التوكل: 49، 61، والفرج بعد الشدة، 63.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

كما أن هناك وفرة من الوصايا لا تسبق بطلب الوصية، بل يدخل الموصي في وصيته مباشرة، من ذلك ما أورده الحافظ في وصية لقمان لأبنه قال " يا بني، لا تأخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة ".⁽¹⁾ وأورد مثله وصية عمير الحطمي لابنيه قال " يا بني إياك ومجالسة السفهاء، فإن مجالستهم دناءة، من يحلم على السفه يسر بحلمه، ومن يجبه يندم، ومن يصبر على ما يكره، يدرك ما يحب، وإذا أراد أحدك أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، ويثق بالثواب من الله، فإن من وثق بالثواب لم يجد مس الأذى ".⁽²⁾ فهاتان الوصيتان لم تسبقا بطلب الوصية، وهذا ما نجده في عدد آخر من الوصايا.⁽³⁾

وقد تكون الوصية بمعنى التكليف أو التذكير، فقد أورد الحافظ في ذلك عن أبي عمران الجوني⁽⁴⁾ قال " أوصاني أبو الجلد أن ألقنه لا إله إلا الله، فكنت عند رأسه، وقد أخذه كرب الموت، فجعلت أقول يا أبا الجلد: قال لا إله إلا الله، فقال: لا إله إلا الله، بها أرجو نجاة نفسي، لا إله إلا الله، ثم قبض ".⁽⁵⁾

وهناك نصوص جاءت فيها كلمة الوصية على وفق المعنى الفقهي لها، وليس بمعنى النصيحة، على نحو ما جاء في هذه الوصية التي أوردها ابن أبي الدنيا قال " كان فتى به رهق، فاحتضر، فقالت له أمه: يا بني، توصي بشيء ؟ قال: نعم، خاتمي لا تسليبيه، فإن فيه ذكر الله تعالى، لعل الله أن يرحمني، فرؤي في النوم، قال: أخبروا أُمي أن الكلمة قد نفعني، وأن الله قد غفر لي ".⁽⁶⁾ وأورد مثله عن الحسن قال " إن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة، فقال له أهله: أوص يا فلان، قال: أنظروا خاتمة سورة النحل، فاستوصوا بها خيراً ((إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)) ".⁽¹⁾ ونحن لا نستطيع إغفال ما تضمنته هذه الوصايا من نصح وإرشاد، ولكن على نحو غير مباشر.

(1) قصر الأمل: 122.

(2) الحلم: 28.

(3) للمزيد من الأمثلة ينظر: كتاب الحلم: 47، 54، 65، 66، واليقين: 54، 62.

(4) هو عبد الملك بن حبيب الأزدي البصري الجوني وهو ثقة. ت 128هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 1 / 661.

(5) المختصرين: 24.

(6) المصدر نفسه: 37.

(1) المصدر نفسه: 119.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وقد تنوعت الموضوعات التي تدور حولها الوصايا (2) فأكثرها لم يحدد موضوعها من طالبها، بل للموصي الخيار في أن يوصي بما يشاء، وغالبها يعنى بأمور المسلمين في مختلف مناحي حياتهم، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة الإنسان مع ربه من جهة، وعلاقته مع الآخرين من جهة أخرى، على نحو ما نقرأه في هذه الوصية التي أوردها الحافظ عن العباس بن عبد المطلب عليه السلام لما نزل به الموت قال لأبنه " يا عبد الله إني والله ما مئ موتاً، ولكني فنيئ فناءً، وإني موصيك بحب الله وحب طاعته، وخوف الله وخوف معصيته، فإنك إذا كنت كذلك لم تكره الموت متى أتاك، وإني أستودعك الله يا بني، ثم استقبل القبلة فقال: لا إله إلا الله، ثم شخص ببصره فمات " (3).

وأورد الحافظ مثله وصية لقمان لأبنه " يا بني، إني موصيك بخصال، إن تمسكت بهن لم تنزل سيئاً، أبسط حلمك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، وصل أقربائك، وليكن إخوانك الذين إذا فارقوك وفارقتهم لم تعب بهم " (4).

وأورد مثله وصية رجل من الأنصار، قال لأبنه في ساعة احتضاره " يا بني، إني موصيك بوصية فاحفظها عني، فإنك خليقٌ ألا تحفظها على غيري: أتق الله. إن استطعت أن يكون اليوم خير منك أمس، وغداً خيراً منك اليوم فأفعل. وإياك والطمع فإنه عدو حاضر وعليك باليأس (5) فإنك لم تيأس من شيء إلا استغيت عنه، وكل شيء يعتذر منه فإنه لم يعتذر من خير، وإذا عثر عاثر من الناس فأحمد الله أن لا تكونه، وإذا قمت إلى صلاتك فصلي صلاة مودع، وأنت ترى أنك لن تصلي بعدها أبداً " (1).

ومع وفرة الوصايا المتسمة بالقصر والإيجاز مما تقدم ذكره، إلا أن هناك طائفة من الوصايا الطويلة المسبوقة بطلب الوصية، أوردها الحافظ ابن أبي الدنيا في مصنفاة، كما في

(2) تنوع الوصايا وتعددتها يعود لاختلاف المناسبات التي قيلت فيها، فشملت أولاً: وصايا العلماء والدعاة لتلامذتهم وأنصارهم وللخلفاء وأولادهم. ثانياً: وصايا الخلفاء لقوادهم وعمالهم، ثالثاً: وصايا الآباء لأبنائهم، وكل هذه الوصايا عالجت موضوعات سياسية، واجتماعية ودينية.

(3) المختصرين: 215.

(4) الحلم: 47.

(5) ومعناه هنا اليأس مما في أيدي الناس.

(1) المختصرين: 220.

طلب قرة النحات الوصية من أحد العباد في بيت المقدس، قال " أوصني، قال: عليك بالصبر، و التصبر، والاصطبار، قال: قالت ما الصبر وما التصبر، وما الاصطبار ؟ قال: أما الصبر فالتسليم والرضى بنزول المصائب والبلوى، وتوطين النفوس عليها قبل حلولها، وأما التصبر، فتجرع مرارتها عند نزولها، ومجاهدة النفس على هدوئها وسكونها وأما الاصطبار، فاستقبال ما ينزل منها من المصائب والبلوى بالطلاقة والبشر، وانتظار ما لم ينزل منها بالاعتبار والفكر، فإذا كان العبد كذلك كان مصطبراً لم يبال ما تقدم من ذلك ".⁽²⁾

وأورد الحافظ مثله وصية معروف الكرخي⁽³⁾ لرجل قال له أوصني، قال " توكل على الله عز وجل حتى يكون جليسك وأنيسك، وموضع شكواك، وأكثر ذكر الموت حتى لا يكون لك جليس غيره، وأعلم أن الشفاء لما نزل بك: كتمانته، وأن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك، ولا يعطونك ولا يمنعونك ".⁽⁴⁾ وهناك وصايا طويلة أخرى.⁽⁵⁾

(2) الصبر: 106.

(3) هو معروف بن فيروز الكرخي أبو محفوظ أحد أعلام الزهد والمتصوفين. ينظر: تاريخ بغداد: 13 / 199.

(4) التوكل: 49.

(5) للمزيد من الأمثلة ينظر كتاب: المختصرين: 220، 68، 37، 34. والفرج بعد الشدة: 63. والإخلاص والنية: 54.

● الدعاء والمناجاة:

ومن الأنواع الفنية في رقائق الحافظ ابن أبي الدنيا، الدعاء والمناجاة. فالدعاء: هو العبادة، والرغبة إلى الله عز وجل⁽¹⁾ إذ هو الصلة التي تربط الإنسان بخالقه، فيتوجه الداعي فيه - بالروح والقلب والوجدان - إلى الله تعالى وحده، متوسلاً متضرعاً لطلب حاجة من حاجات الدنيا أو الآخرة، وبعبارة أخرى فالدعاء هو: الالتجاء إلى الله تعالى في دفع المكروب، أو طلب المحبوب، وهو مظهر من مظاهر الخضوع والعبودية إليه سبحانه، والاعتراف له بأنه وحده القادر المدبر لأمر الدنيا والآخرة.

ولضعف الإنسان أمام الشدائد في الدنيا فإنه لا يجد ملجأ لضعفه غير الدعاء، لذلك أمر الله المؤمنين بالدعاء، فقال " وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ " (2).

ومن معاني الدعاء: النداء، والطلب من الأدنى إلى الأعلى، والصلاة دعاء، أو دعوات إلى الله، يقوم بها العبد حينما يتوجه إليه سبحانه، ويتضرع لمناجاته، فالدعاء والمناجاة تكون نوعاً فنياً واحداً، قوامه خطاب الله تعالى، والتضرع إليه، والتوسل به، وتمجيده، مما يستدعي بناءً فنياً خاصاً يميز هذا النوع ويبين عن طبيعته " (3).

ويتألق فن الدعاء والمناجاة في مصنفات الحافظ ابن أبي الدنيا، ولاسيما كتابيه (مجاويز الدعوة و الفرج بعد الشدة) فكلاهما صفحة دعاء ومناجاة لله سبحانه، وكلاهما قنوت وابتهاال وشوق إلى ما عند الله تعالى، وقد عرض فيهما الحافظ أدعية الأنبياء ومناجاة الصالحين، التي تفوح بسبحات الفكر والصلواة، والاستغفار والخضوع والخشوع، معبرين عنها بأرق الألفاظ وأعذب العبارات، من ذلك ما نجده في مناجاة نبي الله داود عليه السلام قائلاً " إلهي لا صبر لي على حر شمسك، فكيف صبري على حر نارك؟ إلهي لا صبر لي على صوت رحمتك - يعني الرعد - فكيف صبري على صوت عذابك " (4). وأورد الحافظ مثله مناجاة

(1) ينظر: لسان العرب، مادة (دعا): 257/14.

(2) سورة غافر: الآية 60.

(3) النشر الصوفي في الأدب العربي، فائز طه عمر: 162.

(4) صفة النار: 139.

نبي الله يوسف عليه السلام لربه قائلاً " اللهم اجعل لي من كل ما أهمني وكرّني من أمر دنياي وآخرتي فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث لا أحتسب، واغفر لي ذنوبي، وثبت رجائك في قلبي، واقطعه ممن سواك حتى لا أرجو أحداً غيرك ".⁽¹⁾ وأورد مثله دعاء ومناجاة محمد ابن المنكدر في شأن الوديعة التي أنفقها، قائلاً " يا ساد الهواء بالسماء، ويا كابس الأرض على الماء، ويا واحد قبل كل أحد يكون، أدّ عني أمانتي ".⁽²⁾

ويغلب على الأدعية والمناجاة في مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا القصر والإيجاز، على نحو ما نجده في دعاء نبي الله داود عليه السلام قائلاً " سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، سبحان مستخرج الشكر بالرخاء ".⁽³⁾ وأورد مثله دعاء عطاء السلمي قائلاً " إلهي قد تعلم حاجتنا قبل أن نسألكها، فأقضها لنا ".⁽⁴⁾ وأورد مثله دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً " اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع، ولا مفرط ".⁽⁵⁾

ومع أن صفة القصر والإيجاز هي الغالبة على الأدعية والمناجاة في مرويات الحافظ، إلا أن هناك وفرة من الأدعية ومناجاة الطويلة، منها ما نجده في دعاء نبي الله دانيال عليه السلام قائلاً " الحمد لله الذي لا ينسى مَنْ ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من دعاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا ".⁽⁶⁾

وأورد مثله دعاء جعفر الصادق عليه السلام عند ما استدعاه أبو جعفر المنصور، فقال " اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بركنك الذي لا يرام، واغفر لي بقدرتك علي، ولا أهلك وأنت رجائي، ربّ كم من نعمة أنعمت بها علي قل لك عندها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل لك عندها صبري، فيا من قل عند نعمه شكري، فلم يجرمني، ويا من قل عند بليته

(1) الفرج بعد الشدة: 75.

(2) مجابو الدعوة: 86.

(3) الفرج بعد الشدة: 62.

(4) مجابو الدعوة: 82.

(5) المصدر نفسه: 47.

(6) الفرج بعد الشدة: 108.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

صبري، فلم يخذني، ويا من رأي على الخطايا فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، ويا ذا النعم التي لا تحصى أبداً، أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد، وبك أدراً في نحره، وأعوذ بك من شره، اللهم أعني على ديني بدنياي، وعلى آخرتي بتقواي، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حظرته، يا من لا ضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة اغفر لي ما لا يضرك، واعطني ما لا ينقصك، وإنك أنت الوهاب أسألك فرجاً قريباً، وصبراً جميلاً، ورزقاً واسعاً، والعافية من جميع البلاء، وشكر العافية ⁽¹⁾. وهناك أدعية ومناجاة طويلة أخرى ⁽²⁾.

وغالباً ما يبدأ أدعيتهم ومناجاتهم، بـ (اللهم، وإلهي) أو بما يليق به سبحانه وتعالى من تعظيم وإجلال مما سنشير إليه، فمن الأدعية المبدؤة بـ (اللهم) ما لحناه في الأمثلة السابقة، ومنها أيضاً دعاء أبي بكر رضي الله عنه قائلاً "اللهم هب لي إيماناً و يقيناً ومعافاة ونية" ⁽³⁾.

وقد تتكرر لفظة أللهم في دعائهم، ومناجاتهم على نحو دعاء نبي الله يوسف عليه السلام قائلاً "اللهم أشكو إليك ما لقيت من ودي وعدوي، أما ودي فباعوني، وأخذوا تمني، وأما عدوي ففسجنني، اللهم اجعل لي فرجاً ومخرجاً، فأعطاه الله ذلك" ⁽⁴⁾.

كما أنهم كثيراً ما اتبعوا لفظ (اللهم) بألفاظ أخرى في الدعاء الواحد على نحو ما نجده في دعاء عتبة الغلام، قائلاً "إلهي وسيدي، لا تخزني يوم الحساب" ⁽⁵⁾. ومن الأدعية المبدؤة بإلهي ما لحناه بدعاء نبي الله داود عليه السلام ⁽⁶⁾.

وأورد الحافظ مثله هذا الدعاء "إلهي، وأنت الذي تعرض إساءتي بإحسانك، وفضائحي بسترک، فلم أقو على معصيتك إلا بنعمتك، ولم يجرتني عليك إلا جودك وكرمك" ⁽¹⁾.

(1) الفرج بعد الشدة: 100-101.

(2) للمزيد من ذلك ينظر كتاب: الفرج بعد الشدة: 97، 94، 85، 80. وكتاب: مجابو الدعوة: 160، 28.

(3) اليقين: 31.

(4) الفرج بعد الشدة: 74.

(5) الرقة والبكاء: 90.

(6) ينظر: صفة النار: 139.

(1) الفرج بعد الشدة: 104.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

ومن الأدعية ما يبدأ بألفاظ أخرى من أسماء الله الحسنى، مثل (يا عليم يا رب، يا حي، يا ودود) فقد روى الحافظ دعاء أبي مغلق الذي اشتقه من سورة البروج " يا ودود، يا ذا العرش المجيد يا فعال لما يريد، أسألك بعزك الذي لا يرام وملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك، أن تكفني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، ثلاث مرات " (2).

وأورد مثله دعاء العلاء ابن الحضرمي رحمه الله قائلاً " اللهم يا عليم يا حكيم، يا علي يا عظيم، إنا عبيدك وفي سبيلك نقاتل عدوك، فاسقنا غيثاً نشرب منه ونتوضأ من الأحداث، وإذا تركناه فلا تجعل لأحدنا فيه نصيباً غيرنا " (3).

وقد يتوسل الداعي ببعض نعم الله في دعائه، يجعلها صلة لأسم الموصول، على نحو ما أورده الحافظ في هذا الدعاء " يا من يكتفي من خلقه جميعاً، ولا يكتفي منه أحد من خلقه، يا أحد من لا أحد له، انقطع الرجاء إلا منك، أغثني، أغثني " (4) وأورد مثله دعاء يعقوب عليه السلام قائلاً " يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ولا يحصه غيره " (5).

وقد حوت مصنفات ابن أبي الدنيا أدعية ومناجاة شعرية قيلت في بعض المناسبات كدعاء المكروب والمظلوم، والاستسقاء، ومن المناسب إيراد بعض الأمثلة على ذلك، قال ابن أبي الدنيا: أنشدني محمد بن إبراهيم:

إذا اشتملت على اليأس القلوب	وذاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره وأطمأنت	وأرست في أمانها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهاً	ولا أحنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك نحو	يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تنامت	فموصول بها الفرج القريب ⁽¹⁾

وأورد مثله مناجاة الفرزدق في تفريج الكرب قائلاً:

(2) مجابو الدعوة: 45.

(3) المصدر نفسه: 60.

(4) الفرج بعد الشدة: 87.

(5) المصدر نفسه: 72.

(1) الفرج بعد الشدة: 114.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

ولما رأيت الأرض قد سُدّ ظهرها ولم يك (2) إلا بطنها لك مخرجاً
دعوت الذي ناداه يونس بعد ما ثوى في ثلاث مظلمات ففجراً
خرجت ولم يمنن عليك شفاعة (3) سوى ربك البر اللطيف المفرجاً (4)
وأصبحت (5) تحت الأرض قد سرّت ليلة وما سار سار مثلاً حين أدلجاً (6)
وأورد مثله عن رجل كان يكثر الدعاء قائلاً:

إني ومن خلق السما واه، الطباقي ومن يراني
أدعو ما تجر يدا ي، إذا دعوت ولا ينساني
إلا بقلبي موقن إن ال ذي، أدعو يراني
فيدي ويسمع ما أقو ل، فإن وثقت به كفاني (7)

(2) في الديوان (ترى).

(3) في الديوان (طلاقة).

(4) في الديوان العجز (سوى ربك التقريب من آل أعوجا).

(5) في الديوان (فأصبحت).

(6) الفرج بالفرزدق: 121. ينظر ديوان الفرزدق: 117/1. وفي هذه القطعة الشعرية تقديم وتأخير فالبيت الرابع حقه التقديم كما

هو في الديوان، ومن هنا يظهر أن ابن أبي الدنيا كان يتصرف في النصوص، ويغير في الكلمات موافقة لمنهج في الوعظ والرقائق.

(7) اليقين: 66. أصل البيت الثاني (أدعو وما تحرك يدا ي إذا دعوت لا ينساني) وأصلحناه لسلامة الوزن والمعنى.

☆ المبحث الثاني.

● الخطب:

ومن الأنواع الفنية في رقائق ابن أبي الدنيا الخطب، فهي: فن من فنون القول المعتمد مشافهة الناس لأقنعتهم والتأثير بهم. فالخطابة " فن مشافهة الجمهور، وإقناعه واستمالته".⁽¹⁾ كما أنّها " صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول ".⁽²⁾ فالخطابة تقوم على ركيزتين هما، مشافهة الجمهور لإقناعه بالحجج والبراهين القاطعة، واستمالة عاطفته، والتأثير فيه. فالخطيب الناجح هو الذي يتحدث مع الجماهير ويحاول أن يدخل إلى عواطفهم وقلوبهم واستمالتها إليه. لذلك " فالخطابة هي الفن الكلامي، الذي يعد أقرب الفنون لقوة الإرادة وألصقها بها. لأن الإقناع والتأثير اللذين يعتمد عليهما الخطيب يعملان عملهما في تفكير الجمهور وعواطفه، ويدفعان الإرادة إلى العمل الحاسم، ومن هذه الوجهة صارت الخطابة فناً عملياً ".⁽³⁾

وتذكر كتب الأدب مواصفات الخطابة الجيدة، التي ترفع من شأنها، وتزيدها قبولاً فتقول " إن رأس الخطابة هو الطبع، وعمودها الدربة، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والحجة مقرونة بقلّة الاستكراه، وأنشد بعضهم في بيت له في خطباء:

يرمون بالخطب الطوال وتارة **وحي الملاحظ خيفة الرقباء " (4)**

إن فن الخطابة فن قديم، نشأ مع نشأة الإنسان، وارتقى برفقه، وتطور بتطوره. فنشأتها نشأه طبيعية عند كل الأمم، يقول الأستاذ الشايب " هي فن قديم، وجد مع الإنسان، يلجأ إليه النابهون في الإرشاد والخصومات والحث على الحروب والسلام، ويرقى كلما استجدت دواعيه، واستقرت الحرية الفكرية والكلامية للشعوب ".⁽⁵⁾

(1) فن الخطابة ، أحمد الحوفي :9

(2) الخطابة ، محمد أبو زهرة:12.

(3) الخطابة في صدر الإسلام، محمد طاهر الدرويش: 1/1.

(4) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي:55/4.

(5) الأسلوب، أحمد الشايب:108.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

وتهدف الخطابة في أي عصر بوجه عام إلى تحقيق التفاهم، وشيوع الطمأنينة، والتوجيه نحو الخير والفضيلة، فالخطابة في أي عصر " سلاح المجتمع الإنساني في سلمه وحره، وفي ترقيته، والإسراع به نحو المثل الأعلى الذي يجب أن يقصد إليه ".⁽¹⁾

إن فن الخطابة من حيث الموضوعات يتنوع إلى أنواع عدة، منها ما هو ديني، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو سياسي، وغير ذلك⁽²⁾ ولكن الغالب في مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا الخطب الدينية والاجتماعية، كما أن الخطابة تشكل نوعاً فنياً بارزاً في رقائقه، حيث حفظت لنا مصنفاته نصوصاً كثيرة منها، تتسم ببساطة ألفاظها، وسهولتها وتجنبها الغريب مع وضوح في عباراتها.

والذي يلاحظ على عبارات الخطابة في أدب الرقائق الإيجاز والقصر، فقد كانوا يرون البلاغي في الإيجاز، ومن الخطب التي امتازت بقصرها خطبة النبي ﷺ التي رواها الحافظ ابن أبي الدنيا عن البراء بن عازب ؓ قال " خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها، فقال: يا معشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، ومن يتبع الله عورته يفضحه وهو في جوف بيته ".⁽³⁾

ومن خطبه ﷺ القصيرة التي يحث فيها أصحابه على العمل الصالح قبل أن يأتيهم الموت - ولات ساعة مندم على التفريط - ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا في خطبته ﷺ يوم الجمعة قال " يا أيها الناس إن لكم علماً فانتبهوا إلى علمكم، وإن لكم نهاية، فانتبهوا إلى نهايتكم، وإن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري كيف يصنع الله عز وجل فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري كيف الله صانع فيه، فليتزود المرء لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشباب قبل الهرم، ومن الصحة قبل السقم، فإنكم خلقتم للآخرة، والدنيا خلقت لكم، والذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، وأستغفر الله عز وجل لي ولكم ".⁽⁴⁾ ومن الخطب القصيرة ما نقله الحافظ ابن

(1) المصدر نفسه: 116.

(2) فمنها الخطب القضائية والحربية والحفلية وخطب النكاح.

(3) الصمت وآداب اللسان: 303. الحديث رواه الترمذي: 4/ 378.

(4) قصر الأمل: 129. الحديث أورده الديلمي في الفردوس: 5/ 278.

أبي الدنيا من خطبة الحجاج بن يوسف ، قال وهو على المنبر " رحم الله أمراًً نظر لنفسه مبادراً فوثها قبل أن ينزل الموت بها.. ثم ينزل الموت بها .. ثم نزل عن المنبر وهو ييكى " (1)

فالصفة الغالبة للخطب في رقائقه الإيجاز والقصر، إلا أن هناك وفرة من الخطب الطوال، التي حوتها مصنفاته. ومنها خطبة عمر بن عبد العزيز قال " إن لكل سفرٍ زاداً لا محال، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبون وترهبون، ولا يطولن عليكم الأمل، فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه، ولا يمسه بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا! فكم رأيتم ورأيتم، من كان بالدنيا مفترأً! وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله. وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة..... " (2). ويذكر ابن عبد ربه الأندلسي في عقده عن أنواع الخطب من حيث الطول والقصر قائلاً " اعلم أن جميع الخطب أن جميع الخطب على ضربين، منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك موضع يليق به، ومكان يحسن فيه " (3).

ولا تخلو الخطبة على كل حال من مقدمة يفتح بها الحديث، وعرض للموضوع وهو الأساس الذي تبنى عليه الخطبة، وخاتمة تكون تلخيصاً للموضوع وتوكيداً له، وللخطبة شروط في البدء والختام. فافتتاحها يكون بالتحميد والتمجيد لله، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، والوصية بالتقوى، حتى قال الجاحظ: إن خطباء السلف وأهل البيان من الصحابة وتابعيهم بإحسان ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد، وتستفتح بالتمجيد والثناء (البتراء) ويسمون التي لم توشح بالقرآن ، وتزين بالصلاة والسلام على النبي ﷺ (الشوهاء) (4).

(1) قصر الأمل: 113.

(2) المصدر نفسه: 50-51.

(3) العقد الفريد: 4/54.

(4) ينظر: البيان والتبيين: 2/6.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

أما خلو الخطبة من بعض آي القرآن الكريم فقد كان شيء ينقص من قدرها مهما كان حظها من البلاغة وقوة الحجة. فالخطب الدينية في أدب الرقائق تستمد أغلب موضوعاتها من آيات القرآن الكريم ومعانيه، كما في خطبة أبي موسى الأشعري على منبر البصرة التي أوردها ابن أبي الدنيا عنه قائلاً " إن الله عز وجل يبعث يوم القيامة ملك إلى أهل الجنة، فيقول: يا أهل الجنة، هل أنجزكم الله ما وعدكم؟ فينظرون فيرون الحلي والحلل، والثمار والأنهار، والأزواج المطهرة، فيقولون: نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا. ثم يقول الملك: هل أنجزكم الله ما وعدكم، ثلاث مرات. فلا يفقدون شيء مما وعدوا، فيقولون نعم، فيقول: قد بقي لكم شيء، إن الله عز وجل يقول (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ألا إن الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الكريم ". (1) أما ختام الخطب فقد كان لكل خطيب عبارة، يطيل تكرارها، فيعرف الناس أنه على وشك الانتهاء من خطبته.

وتتنوع أساليب القسم في الخطابة الدينية حسب موقف الخطيب وانفعاله، فرسول الله ﷺ كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته، واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش، يقول: صبحتكم أو مسيتكم، ثم يقول، بعثت أنا والساعة كهاتين، يفرق بين إصبعيه السبابة والتي تليها. (2) ومنها ما يكون بلفظ الجلالة صراحة على نحو ما في خطبة عمر بن عبد العزيز قال " والله ما هي إلا الآخرة، ألا فعملوا الخير ما دعيتم إليه، ولا تعزركم الدنيا، والمهلة فيها، فعن قليل تنقلون إلى غيرها ". (3) ومنها ما يكون بلفظ (والذي نفس محمد بيده) على نحو ما في خطبته ﷺ " والذي نفس محمد بيده، لو تعلمون من علم الآخرة ما أعلم لمشيتم إلى الصعيد، فلهثيتم على رؤوسكم التراب ". (4) ومنها ما يكون بلفظ (وايم الله) على نحو ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز " وأيم الله إني لأقول لكم مقالتي هذه، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي.... ". (5)

(1) صفة الجنة: 43.

(2) قصر الأمل: 96.

(3) المصدر نفسه: 112.

(4) صفة النار: 15. الحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب: 4 / 248.

(5) قصر الأمل: 66.

● الرسائل:

من الأنواع الكتابية للنشر الفني الرسائل، فهي تكون نمطاً فنياً ولوناً أدبياً متميزاً في رقائق ابن أبي الدنيا. يعبر الكاتب من خلالها عما ينبعث من أعماق نفسه ليوضح كقصده وبصور واقعه ويعكس أصدائه المتباينة.

ومصطلح (الرسالة) يراد به النص المدون، الذي يبعث به المرسل إلى المرسل إليه، وقد ورد في القرآن الكريم آيات بينات توضح ذلك، منها قوله تعالى " يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا " (1) وقوله تعالى " فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " (2) وقوله تعالى " أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ " (3) وغيرها. (4) ويبدو واضحاً من الآيات القرآنية الاحتجاج بأن الرسول ما عليه إلا تبليغ الرسالة، وهذا كما يبدو أمر يقر به المجتمع.

ووردت تسمية الرسائل بـ (المكاتبات) فقد استعملوا اسم كتاب بمعنى الرسالة في مراسلاتهم، كما واضح في مرويات أبي الدنيا. وتقسم الرسائل تبعاً لموضوعاتها إلى أنواع، فمنها الرسائل الدينية الوعظية، وهي " الرسائل التي صيغت لمعالجة موضوعات ذات صلة مباشرة بالإسلام. وتكون فكرتها إسلامية واضحة، ويتسع مضمونها حتى يشمل العبادات والأخلاق وبعض المعاملات، وغيرها مما يرتبط بالإسلام والعقيدة الإسلامية " (5).

ومنها الرسائل الإخوانية، وهي " الرسائل التي تكتب بين الأنداد والأصدقاء في أمور وقضايا اجتماعية مختلفة، وغالباً ما تكون بين الأدباء أنفسهم، أو بينهم وبين أنداد وأصدقاء لهم من القضاة والعلماء وغيرهم " (6) وهناك أنواع أخرى. (7)

(1) سورة الأنعام: الآية 130.

(2) سورة النحل: الآية 35.

(3) سورة الزمر: الآية 71.

(4) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: 404.

(5) النشر الأندلسي في عصر الطوائف والمراطين، حازم عبد الله خضر: 91.

(6) المصدر نفسه: 159.

(7) أي الرسائل الديوانية والرسائل الوصفية.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

والغالب على مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا الرسائل الدينية والرسائل الإخوانية. ونلاحظ أن الرسائل في رقائقه شأنها شأن أغلب الرسائل الأخرى، تبدأ بالسلام والثناء عليه على نحو ما كتبه محمد بن يوسف ⁽¹⁾ إلى أخيه قال " سلامٌ عليك فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني محذرك مُتحوِّلِكَ من دار مهلتك إلى دار إقامتك، وجزاء أعمالك، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها، فيأتك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك، فإن يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع.....". ⁽²⁾

وربما لم تبدأ الرسالة بالسلام والثناء مما نجده في الرسالة التي كتبها محمد بن يوسف لأخيه " يا أخي بلغني كتابك تذكر ما أنت فيه، وإنه ليس ينبغي لمن عمل بالمعصية أن ينكر العقوبة، وما أرى ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب ". ⁽³⁾

وقد ورد عدد من الرسائل لا يبدأ بالسلام ولا بغيره، بل يدخل الكاتب إلى موضوعه مباشرة، بعد ذكره أما بعد، و يبدو أن ذكر أما بعد دليل على أن السلام والحمد قد اقتطعا من هذه الرسائل على نحو ما كتبه سفيان الثوري " أما بعد: فأحسن القيام على عيالك، وليكن الموت من بالك والسلام ". ⁽⁴⁾ وعلى نحو ما كتبه سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء " أما بعد: فأني أوصيك بذكر الله، فإنه دواء، وأنحك عن ذكر الناس فإنه داء ". ⁽⁵⁾

وأما عن ختام هذه الرسائل فإننا لا نجد ما يدل على نهايتها إلا كلمة السلام، التي يختم بها الكاتب رسالته، وربما يختمها بآية قرآنية، وأحياناً بالصلاة والسلام على النبي ﷺ من ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا عن سالم بن عبد الله كتب إلى عمر بن عبد العزيز " أما بعد فإن الله عز وجل وتقدس، لا يقدر أحد قدره، ⁽⁶⁾ سبحانه وتعالى عما يشركون، خلق الدنيا لمن

(1) هو محمد بن يوسف بن معدان الأصهباني العابد أبو عبد الله كان يسميه ابن المبارك عروس الزهاد. ينظر: صفوة الصفوة:

81/4.

(2) قصر الأمل: 63.

(3) العقوبات: 58.

(4) العيال: 159/1.

(5) الصمت وآداب اللسان: 321.

(6) في الأصل كلمة غير واضحة رسمها قريب من قدره. المحقق.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

أراد وجعل لها مدة قصيرة، فكان ما بين أولها إلى آخرها ساعة من النهار، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء، فقال (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون)⁽¹⁾. وأورد مثله ما كتبه رجل إلى أخ له " أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة، والمتوسط بينهم الموت، ونحن في أضغاث والسلام "⁽²⁾.

والملاحظ أن هذه الرسائل لم تكن بأطوال متساوية، بل هي متراوحة بين الطول والقصر، مما يتحدد به طبيعة موضوع الكاتب وما يتطلبه المعنى من إيفاء على أن أكثر الرسائل في رقائق ابن أبي الدنيا قصيرة موجزة مما رأيناه في الأمثلة السابقة، ومن الرسائل الطويلة ما رواه الحافظ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه كتب إلى أبي بن كعب رضي الله عنه " أما بعد: فإن الله جعل اللسان ترجمان للقلب، وجعل القلب وعاءً وداعياً ينقاد اللسان لما هُدي له القلب، وإذا كان القلب على طرف اللسان كلّ الكلام واختلف القول، فإذا كان اللسان من وراء القلب استقام القول واعتدل، ولم يكن اللسان عشرة ولا زلة، ولا حلم لمن لم يكن قلبه بين يدي لسانه..... والسلام "⁽³⁾ وهناك رسائل طويلة أخرى⁽⁴⁾

وقد اتسمت الرسائل في رقائقه بسمات فنية من ناحية المعاني والتراكيب والأفكار، كما اتسمت بالتجويد والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، إذ السائل " بدأت تتسم بملامح فنية جديدة، افتقرت إليها كثير من المكاتبات من قبل - ولا سيما في العصر النبوي - وقد أتضح أن أبرز المزايا الفنية الجنوح إلى الإسهاب، وتضمين الرسائل الشعرية والاقتباس من القرآن الكريم "⁽⁵⁾.

(1) قصر الأمل: 124.

(2) المصدر نفسه: 52.

(3) الصمت وآداب اللسان: 572.

(4) للمزيد من الأمثلة ينظر: كتاب العيال: 640/2. وكتاب الإخوان: 83.

(5) الرسائل الفنية في العصر الإسلامي، غانم جواد رضا: 341.

● المحاورات:

المحاورات في اللغة: تعني المجاورة، والتحاور التجاوب.⁽¹⁾ وفي الاصطلاح الأدبي هي " نوع أدبي تتجادل فيه الشخصيات في موضوع ما ".⁽²⁾ والمحاورة هي " حديث يشترك فيه أكثر من شخص يدور حول موضوع محدد، ويتحدد إسهام المتحدثين فيه على حسب طبيعة الموضوع وقربه من أي منهم، وعلى حسب مقام المتحدث فربما تكون المحاورة سؤال وجواب ".⁽³⁾

والملاحظ أن المحاورات من الأنواع الأدبية للنثر الفني يشترك فيها أكثر من متحدث حول موضوع ما، قوامها السؤال والجواب غالباً، وتجسد المحاورات نوعاً فنياً بارزاً في أدب الرقائق، نواتها السؤال والجواب، وغالباً ما تكون الأسئلة موجهة إلى العلم من تلامذته حول موضوع ما، يستدعي الإيضاح والاستزادة لفهمها، وقد توجه الأسئلة من العالم إلى المتعلم، بطريقة يقوده لأن يتوصل بنفسه إلى الحقيقة، وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه لما يلقي إليه، ليتمكن من فهمه ثم الإجابة عليه، على نحو ما أورده ابن أبي الدنيا عن البراء بن عازب رضي الله عنه " قال كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتدرون أي عرى الإيمان أوثق؟ قلنا: الصلاة، قال: إن الصلاة حسنة وما هي بها، فذكروا شرائع الإسلام. فلما رأهم لا يصيبون قال: أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله عز وجل ".⁽⁴⁾

وحفظت لنا مصنفات الحافظ نصوصاً كثيرة من المحاورات، قوامها السؤال والجواب، وغالباً ما يكون الجواب مركزاً جداً، تظهر فيه قوة العبارة، وبراعة البيان، ونظراً لكثرة المحاورات التي تستند إلى السؤال والجواب، فإن ذلك " يجعلها غير متوازنة ومعبرة على الأكثر عن المقدرة البيانية للمجيب دون السائل الذي تعود إليه إثارة موضوع المحاورة مع أن الجواب يكون أيضاً على قدر السائل مما يمثل تأثيراً آخر له مستوى المحاورة ".⁽¹⁾

(1) ينظر: لسان العرب: 218/4.

(2) معجم مصطلحات الأدب: 110.

(3) النثر الصوفي في الأدب العربي: 152.

(4) الإخوان: 35. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 1/ 89.

(1) النثر الصوفي في الأدب العربي: 154.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

وغالباً تدور موضوعات المحاور في أدب الرقائق حول محور الدين، وقد اعتمدت المحاورات الإيجاز غالباً، مضافاً إليه قوة العبارة، والمهارة في التصوير. ومن المحاورات الموجزة، ما أجاب به الفضيل بن عياض عند ما سُئل عن الورع؟ فقال "اجتناب المحارم".⁽²⁾ وأورد الحافظ مثله ما أجاب به الأحنف بن قيس عندما سُئل عن الحلم؟ فقال " أن تصبر على ما تكره قليلاً".⁽³⁾ وأورد مثله ما أجاب به البطل،⁽⁴⁾ عند ما سُئل عن الشجاعة؟ فقال " صبر ساعة".⁽⁵⁾ وكثير منها يجري على هذا النحو، الذي يكون فيه الجواب تعريفاً لأحد الجوانب الأخلاقية السلوكية.

كما أن من المحاورات ما كان يدور عن معنى آية قرآنية، من ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا في سؤال الحسن البصري عن قوله تعالى " مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ".⁽⁶⁾ فقال " سبحان الله ! ومن يشك في هذا؟! كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب من قبل أن تبرا النسمة ".⁽⁷⁾

وربما يكون الجواب بآية قرآنية، من ذلك ما رواه الحافظ عن عبد الملك بن مروان قيل له في مرضه " كيف تحدثك يا أمير المؤمنين؟ فقال : أجدني كما قال الله (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعائكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم، وضل عنكم ما كنتم تزعمون) ".⁽⁸⁾ وقد يكون الجواب بشعر على نحو ما أورده ابن أبي الدنيا عن حسان بن ثابت رضي الله عنه عند ما سُئل عن أشعر الناس فقال: الذي يقول :

إني من القوم الذين إذا اجتدوا بدأوا بغير الله ثم النازل

(2) الورع: 60.

(3) الحلم: 59.

(4) هو البطل الشعبي المعروف عبد الله بن الحسين الأنطاكي، كان كثير الغزاة إلى الروم، والإغارة على بلادهم. ينظر: الكامل في التاريخ: 4/248.

(5) الصبر: 44.

(6) سورة الحديد: الآية 22.

(7) الفرج بعد الشدة: 58.

(8) المختصرين: 76.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

والباحدين على الطعام النازل	المانعين من الخنا جيرانهم
والباحلين عطاءهم للسائل	والخالطين فقيرهم بغنيهم
ضرب المنية عن حياض الناهل	والضاربين الكبح بريق بيضه
والنازلين لضرب كل منزل	والعاطفين على الحصان خيولهم
إن المنية من وراء الأكل	والقائلين معاً: خذوا أقرانكم
يمشون مشي الأسد تحت الوابل	خزر يحبونهم إلى أمدائهم
ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل	ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا
يشفون بالأحلام داء الجاهل	لا يطعمون وهم على أحسابهم
يوم المقامة بالكلام الفاصل (1)	والقائلين ولا يعاب خطيبهم

وأكثر المحاورات في رقائق الحافظ قصيرة موجزة، على نحو ما جاء في هذه المحاورات التي أوردها الحافظ، قيل لحسن " ما الصبر؟ وما السماح؟ قال: السماح بفرائض الله والصبر عن محارم الله ". (2) وعلى نحو ما سئل عطوان بن عمرو التميمي (3) عن قصر الأمل؟ فقال " ما بين تردد النفس ". (4) وغيرها. (5) إن الغالب على المحاورات في رقائق ابن أبي الدنيا القصر إلا أن هناك محاورات طويلة، تعتمد على السؤال والجواب، على نحو ما في هذه المحاورات، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لما مرض مرضه الذي مات فيه قيل له " ما تشتهي؟ قال : أشتهي الجنة . قالوا: فما تشتهي؟ قال : الذنوب. قالوا: أفلا ندعو لك الطبيب؟ قال : الطبيب أمرضني ، لقد عشت فيكم على خلال ثلاث ، للفقر فيكم أحب إلي من الغنى ، وللضعف فيكم أحب إلي من الشرف، وإن من حمدي منك ولامني في الحق سواء، ثم قال : أصبحنا؟

(1) الحلم: 40. أصل بدأوا : وبدوا ، وأصل والقائلين: ولا القائلين . وأصلحناه إتماماً لسلامة الوزن والمعنى. ولابد من الإشارة إلى أن ما في النص من الفضائل الخلقية هو الذي جعله من الرقائق.

(2) الصبر: 38.

(3) كان منعزلاً قال محمد بن السماك ما رأيت أحد أشد حذر للموت من عطوان بن عمرو. ينظر: صفوة الصفوة: 3/ 126.

(4) قصر الأمل : 43.

(5) للمزيد من الأمثلة ينظر كتاب: الصمت وآداب اللسان: 177، 175، 202، 384، 377، 400.

أصبحنا؟ . قالوا نعم، قال: اللهم إني أعوذ بك من صباح النار. حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ".⁽¹⁾ ومع طول هذه المحاورة، فهي قائمة على تكرار صيغتي السؤال والجواب. وكثيراً ما تثير أجوبة المحاورات سؤالاً آخر، أو استدراكاً أو استزادةً من السائل، مما يكوّن محاورةً مستوفيةً جوانب الموضوع على نحو ما نراه في هذه المحاورة التي أوردها الحافظ في سؤال الصحابة لرسول الله ﷺ عن الجنة فقال " من يدخل الجنة يحيا فيها، فلا يموت، وينعم فيها لا يبؤس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، قيل يا رسول الله: كيف بنائها؟ قال: لبننة من ذهب ولبننة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، ترابها الزعفران، حصبأؤها اللؤلؤ والياقوت ".⁽²⁾ وعلى نحو ما في هذه المحاورة أيضاً سئل رسول الله ﷺ عن الكوثر؟ فقال " نهر أعطانيه ربي عز وجل ، أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها كأعناق الجوزور، فقال عمر رضي الله عنه إنها لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: أكلها أنعم منها ".⁽³⁾

ومع كثرة المحاورات التي قوامها السؤال والجواب، فإن هناك محاورات أخرى ليست كذلك على نحو ما أورده ابن أبي الدنيا عن عطاء بن أبي رباح⁽⁴⁾ قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله لي. فقال "إن صبرت فلك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. قالت: إني أتكشف، فادع الله أن لا أنكشف، فدعا لها ".⁽⁴⁾

(1) المختصرين: 111.

(2) صفة الجنة: 16. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 397 / 10.

(3) المصدر نفسه: 55. الحديث رواه الترمذي: 680 / 4.

(4) وهو عطاء ابن أبي رباح القرشي المكي ثقة فاضل لكنه كثير الإرسال. ت 114هـ. ينظر يفریب التهذيب: 391 / 1.

(4) الصبر: 50.

● الرؤى:

من الأنواع التي تضمنها النثر الفني الرؤى. والتي كونت مادة وفيرة في رقائق الحافظ ابن أبي الدنيا. والرؤيا كشف في حال المنام، فهي " سلسلة من الصور النفسية تتراءى للإنسان في نومه ". (1) وقيل هي " إنطباع الصورة المنحدرة من أفق المخيلة إلى الحس المشترك ". (2) واختيارنا لمصطلح الرؤى دون مصطلح الأحلام أصوب، وذلك لاستعماله غالباً في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا ، ولأن الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان، للحديث " الرؤيا الصادقة من الله، والحلم من الشيطان ". (3) كما أن من مميزات الرؤيا أنها من المبشرات، استناداً لقوله ﷺ " لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة ". (4)

وللرؤى دور كبير وأهمية بالغة في التربية الروحية، فهي واحدة من طرق التهذيب والترهيب، ووسيلة من وسائل التأثير، فالرؤيا " تعد تعبيراً صادقاً عما تنطوي عليه كثير من النفوس من المعاني والأماني، والأفكار والخواطر والعواطف ". (5) والرؤى تعبر عن حركت الخيال ونشاطه بعد ما يتمكن النوم من الحواس، فالنوم " مانع سائر الحواس عن العمل، وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه ". (6) وقد يكون الخيال " أقرب إلى أداء وظيفته في أثناء النوم إذ يتسع له المجال للتأليف بين تلك الصور التي احتفظ بها، سواء أكانت جاءت عن طريق الحس، أم عن طريق القوة المصورة أثناء اليقظة ". (7) وما يراه الإنسان في نومه من مشاهد وصور هي من حديث النفس الذي عبر عنه الإمام الغزالي بقوله " إن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره، حتى أنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة ". (1)

(1) المعجم الأدبي، جبور عبد النور: 98.

(2) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: 475.

(3) رواه البخاري: 6/ 2563.

(4) رواه البخاري: 5/ 2565.

(5) ابن الفارض سلطان العاشقين، محمد مصطفى حلمي: 194.

(6) إحياء علوم الدين، الأمام الغزالي: 4/ 505.

(7) الخيال في مذهب محي الدين بن عربي، محمود قاسم: 17.

(1) إحياء علوم الدين: 4/ 177.

وتختلف الرؤى تبعاً لمن يرويها من حيث طولها وقصرها، ومن حيث موضوعاتها، وغالباً تروى الرؤيا على لسان من تراءت له، وما وصلنا منها هو التعبير عن مضامينها، وربما أجرى عليها صاحبها بعض التعديل مما يراه ضرورياً لتكون رؤياه مقبولة ومستحسنة من ذلك ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا عن رجل رأى الحسن بن حبيب بن ندبة⁽²⁾ في النوم بعد موته فقال " ما فعل الله بك ؟ قال " غفر لي بصبري على الفقر في الدنيا ".⁽³⁾ وأورد مثله عن رجل رأى زارة⁽⁴⁾ بن أبي أوفى بعد موته في منامه فقال " رأيت زارة بن أوفى بعد موته في منامي، فقلت: أي الأعمال أبلغ فيما عنكم؟ قال : التوكل ، وقصر الأمل ".⁽⁵⁾

ولا تخلو الرؤى من هدف تربوي يتوخاه صاحبها من رواية ما يراه في نومه، فقد تتضمن وعظاً ووصية. من ذلك ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا عن ابن إسحاق قال " رأيت الفضيل بن عياض في النوم، فقال: أوصني، قال: عليك بالفرائض، فلم أر أفضل منها".⁽⁶⁾ وأورد مثله عن عمر بن ذر قال " ورث فتى من الحي داراً عن آبائه وأجداده، فهدمها، ثم ابتناها فشيدها، فأُتي في منامه ف قيل له:

إِنْ كُنْتُمْ تَطْمَعُ فِي الْحَيَاةِ فَقَدْ تَرَى أَرْبَابَ دَارِكَ سَاكِنُوا الْأَمْوَالَ
أَنْتَى تَحْسُ مِنَ الْأَرْكَانِ ذَكَرَهُمْ خَلَّتِ الدِّيَارُ وَبَادَتْ الْأَصْوَالُ

فأصبح - والله - الفتى متعظاً، فأمسك عن كثير مما كان يصنع وأقبل على نفسه".⁽⁷⁾

ومن الرؤى التي تضمنت معنى التخويف والترهيب، تلك الرؤيا التي جسّمت معنى الغيبة بأبشع صورة، على نحو ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا عن خالد الربيعي، قال " دخلت المسجد فجلست إلى قوم، فذكروا رجلاً، فنهيتهم عنه فكفوا، ثم جرى بهم الحديث، حتى عادوا في ذكره، فدخلت معهم في شيء، فلما كان من الليل رأيت في المنام، كأن شيئاً أسود

(2) هو الحسن بن حبيب بن ندبة التميمي البصري أبو سعد لا بأس به. ت 197هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 1/ 195.

(3) الصبر: 66.

(4) زارة بن أوفى الحرشي يكنى أبا حاجب زكان يقص في داره، صلى الفجر في المسجد فخر ميتاً. ت 93هـ. ينظر: صفوة الصفوة:

230 / 3.

(5) قصر الأمل: 41.

(6) الورع: 52.

(7) قصر الأمل: 174.

﴿ الأنواع الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

طويلاً جداً معه طبق خلافٍ أبيض عليه لحم خنزير، فقال كُل، قلت: أكل لحم خنزير؟! والله لا أكله، فأخذ بقفاي وقال: كُل - انتهارة شديدة - ودسه في فمي، فجعلت ألوّكُه، ولا أسيّغُه، وأفرق أن ألقيه، واستيقظت، قال: فبمحلوفه لقد مكثت ثلاثين يوم وثلاثين ليلة ما أكل طعاماً إلا وجدتُ طعم ذلك اللحم في فمي". (1)

والغالب على الرؤى القصر، مما رأيناه في الأمثلة السابقة إلا أن هناك طائفة من الرؤى الطويلة، منها ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا عن يعقوب بن داود الوزير (2) قال "حبسني المهدي في بئر، وبُنيْتُ عليّ قبةٌ، فمكثتُ فيها خمس عشرة حجة، حتى مضى صدر من خلافة الرشيد، وكان يُدلى إليّ كلّ يوم رغيف وكوز من ماء، وأؤذن بأوقات الصلاة، فلما كان في رأس ثلاث عشر حجة أتاني آت في منامي فقال:

حنا على يوسف ربّ فأخرجه من قعر جب وبيته (3) حوله ممم

قال فحمدت الله وقلت: أتى الفرج. فمكثت حولاً لا أرى شيء. فلما كانت في رأس الحول أتاني ذلك الآتي فقال لي:

مسمى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

قال فمكثت حولاً لا أرى شيئاً. ثم أتاني ذلك بعد الحول فقال:

مسمى الكرب الذي أُمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

فيأمن خائفه ويهلك محان ويأتي أهله الناني الغريب

فلما أصبحت نوديتُ فظننتُ أني أؤذن للصلاة، فدلّني إليّ حبلٌ أسود، وقيل لي: أشدد به وسطك، ففعلت، فأخرجوني.....". (3) وقد تتضمن الرؤى أقوالاً وأجوبة ومحاورات مما رأيناه في الأمثلة، وثمة رؤى أخرى تأتي في أثناء الحكاية. (4)

(1) الصمت و آداب اللسان: 313. و المراد بقوله: (خلاف) أي شجر الخلاف، صنف من الصفصاف. (فبمحلوفه) في الأصل (فبمخلوقه) وأصلحناه لأن المعنى أنه يقسم بالذي يخلف به، أي بالله.

(2) هو يعقوب بن داود بن عمر السلمي أبو عبد الله كاتب من أكابر الوزراء، كان يكتب لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى فخرج هذا على المنصور العباسي في البصرة فقتله وحبس يعقوب. ينظر:

(3) في الفرج بعد الشدة للتونخي (وبئر حولها غم) .

(3) الفرج بعد الشدة: 116-117.

(4) ينظر: الصبر: 96، وكتاب اختصرين: 147.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا

ويتضمن: ثلاثة مباحث .

المبحث الأول: التصوير البياني وجماليّاته .

المبحث الثاني : فن الوصف .

المبحث الثالث : فن القصة .

المبحث الأول: النصوص البياني وجمالياته.

إن قارئ مصنفات الحافظ ابن أبي الدنيا سيلاحظ أنه قلما أورد من النصوص ما ليس فيه أدبية واضحة عالية، مصدرها القصة أو الوصف أو الصور الجميلة أو الموسيقى المنبعثة من نسيج العبارة، أو ازدواجها أو سجعها، ففي بطون مصنفاته نصوص رائعة لم يطلع عليها كثير من المنشغلين بالأدب العربي. كما أنني أقرر أن في مصنفاته نصوصاً جميلة من النادر أن نقف على مثلها في تراثنا.

فالحافظ ابن أبي الدنيا يتمتع بذوق أدبي رفيع، ورقائقه باب من أبواب الأدب الإسلامي، الذي تتمثل فيه الأدبية العالية - إذ هو لا يختار من النصوص ما فيه الأوامر والنواهي المجردة - فمروياته قلما تخلوا من الصور بحيث يبدو أن هذا هو سبب أو علة اختياره لها، فهي نصوص أدبية بالإضافة إلى كونها في الرقائق في الوعظ والإرشاد.

ومن خلال دراستي لمصنفاته وجدت عدداً كبيراً من الصور البيانية التي وردت في موضوعات مختلفة كثيرة، وما كان لي أن آتي بها كلها فعمدت إلى الاختيار، واقتصرت على نماذج منها تدور حول موضوعات الجنة والنار والحساب والعقاب والأخلاق والعلاقات الاجتماعية.

وهذه الكثافة العالية من الصور نجدها متوفرة في بعض مصنفاته، منها (صفة الجنة) وقد اخترت منه بعض هذه الصور، التي أراها رائعة في تصويرها للنعيم وأحواله. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ ذكر الجنة فقال " ألا هل من مشمر إليها، ورب الكعبة ريحانة تهتز، ونهر مطرد، وزوجة لا تموت في حبور ونعيم قي مقام أبداً " (1).

فالعبارات الواردة في النص عبارة عن تشبيهات تصويرية منها (ريحانة تهتز ونهر مطرد، وزوجة لا تموت) فهذه التشبيهات تمتاز بالوضوح والدقة الواقعية، إذ هي إخبار عن أمر غيبي، والصور في عالم الغيب تقرب المعنى إلى إدراك المتلقي وتوضحه، فلفظة (تهتز) إيغال في

(1) صفة الجنة: 10.

التشبيه معناه النضارة، والنضج، والاختضار الناصع، ولفظ (مطرد) إيغال في التشبيه، معناه التجديد. ولفظ (لا تموت) إيغال في التشبيه معناه الديمومة في المتعة، فقد كونت التشبيهات صورة في الذهن قربت البعيد وجعلت المعقول محسوساً والخيال حقيقة.

ومنه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال " واحة الجنة خبزة بيضاء " ⁽¹⁾ وهذا تشبيه آخر يذكره لنا ابن أبي الدنيا يبرز فيه صورة الجنة في شكل خبزة بيضاء، يعرفها كل إنسان في الدنيا، فقد قربت هذه الصورة الحسية أمر غيبي لنعيم الجنة.

ومنه عن علي رضي الله عنه " أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) قال قلت: يا رسول الله، ما الوفد إلا راكب؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة، عليها رجال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى باب الجنة، ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداها جرت في وجوههم نضرة النعيم، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشتت شعورهم أبداً، فيضربون الحلقة ليفتحه. فلو سمعت طنين الحلقة يا علي، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتستخفها العجلة، فتبعث قيمها ليفتح له الباب، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر ساجداً مما يرى من النور والبهاء، فيقول: أنا قيمك الذي وكلت بأمرك، فيتبعه، فيقفو أثره، فيأتي زوجته، فتستخفها العجلة، فتخرج من الخيمة، فتعانقه وتقول: أنت حيي وأنا حبك، وأنا الراضية فلا أسخط أبداً، وأنا الناعمة فلا أبؤس أبداً، وأنا الخالدة فلا أضعن أبداً، فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، مبنياً على جندل اللؤلؤ والياقوت، طرائق حمر، وطرائق خضر، وطرائق صفر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبته، فيأتي الأريكة، فإذا عليها سرير على السرير سبعون فراشاً، عليها سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من باطن الحلل، يقضي جماعهن في مقدار ليلة، تجري من تحتهم الأنهار مطردة، أنهار من ماء غير آسن، صافٍ ليس فيه كدر، وأنهار من غسل مصفى، لم يخرج من بطون النحل، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصرها الرجال بأقدامهم،

(1) صفة الجنة: 12. ويؤيد هذا الحديث أن أرض المحشر يوم القيامة خبزة بيضاء كخبزة السفر. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده كما يكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الأرض. رواه البخاري .

وأفخار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من بطون الماشية، فإذا اشتهاوا الطعام جاءهم طير بيض ترفع أجنحتها، فيأكلون من جوانبها من أي الألوان شاءوا، ثم تطير فتذهب. وفيها ثمار متدلية إذا اشتهاها انشعب الغصن إليهم، فيأكلون من أي الثمار اشتهاوا، إن شاء قائماً وإن شاء متكئاً، وذلك قول الله عز وجل (وجنى الجنتين دان) وبين أيديهم خدم، كأفهم اللؤلؤ (1).

فهذا الحديث عبارة عن صور متعددة، كونه لوحة فنية تامة الوضوح عن أمر غيبي لا نعرف عنه في واقعنا شيئاً، فالوصف الدقيق - الذي استجمع شرائط الجودة كلها - اعتمد على تغير طبيعة كل شيء من الواقع (فالنعال من نور، والمرأة يرى مخ ساقها من وراء ثيابها،..... إلخ) وفي النهاية يتحول هذا العالم من الواقع إلى عالم الحس. فالحافظ ابن أبي الدنيا بمروياته هذه يشغل خيال المتلقي، ويحركه بتغير طبيعة الأشياء من الواقع إلى المحسوس. فهذا الوصف الدقيق المحكم، والتشبيه والكناية والمجاز، كلها اجتمعت لتقدم لنا لوحة رائعة الجمال أتقن رسمها رسول الله ﷺ فيها من المتعة واللذة للذي يروم أن يتعرف إلى أحوال الجنة ونعيمها، ووصف الحور فيها بريشة الصورة الفذة، التي تحسن نقل الأفكار والخيالات وجعلها صورة محسوسة، كما أن الحديث ذكرنا بصورة غريبة هي: صورة البراق (2) الذي ذكر أنه يضع يده عن منتهى طرفه، عند ما قال: استقلوا بنوق بيض لها أجنحة. فهذه الصورة الواقعية منتزعة من البيئة العربية التي تعرف أوصاف الإبل، وإنها نادرة عزيزة الوجود. والحديث يظهر نعيم الجنة المتناهي في الروعة والجمال، والمتخيل مظهر المحسوس الذي نستطيع أن ندركه إلا أنه باق في دائرة الصورة الخيالية.

(1) صفة الجنة: 12-13. لم أتمكن من تخرجه. وقال محقق كتاب صفة الجنة: أورده السيوطي في الدر المنثور: 285/4. وعزاه

للمصنف، وفي سنده الحارث بن عبد الله الأعور، قال البيهقي: ضعيف.

(2) وهو دابة ركبها النبي ﷺ ليلة الإسراء وجاء ذكرها في حديث الإسراء والمعراج.

ومن الصور الفنية التي تصور كرم الله تعالى وحفاوته وحبه لمن يدخل الجنة، ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا عن زهرة بن عبد القرشي قال " إن العبد أول ما يدخل الجنة يتلقاه سبعون ألف خادم كأئهم اللؤلؤ".⁽¹⁾

فهذا الأثر صورة معتمد على التشبيه في قوله (كأئهم اللؤلؤ) وعلى الكناية في قوله (سبعون ألف) فاستخدام الأرقام يدخل ضمن معنى الكناية، فمن " وسائل التصوير التي يمكن أن تدخل في الكناية استخدام الأرقام، إنها وسيلة رائعة تقرب المعنى وتبرزه بشكل ملموس ".⁽²⁾

ومنه عن عطاء بن يسار⁽³⁾ قال " في الجنة نخل من ذهب، وسعفها كأحسن حلل رأى الناس، وثماريخها وعراجينها ونقادها من ذهب، وثمارها مثل القلال أشد بياضاً من اللبن والفضة وأطيب من المسك، وأحلى من السكر، وألين من الزبد والسمن ".⁽⁴⁾ ومثله عن مجاهد قال " في قوله تعالى (طوبى) هي شجرة في الجنة فيها حمل أمثال ثدي النساء، فيها حلل أهل الجنة ".⁽⁵⁾ ومثله عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يمتخطون، ولا يبولون، قال: فما بال الطعام؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس ".⁽⁶⁾

فهذه النصوص تضمنت صور فنية جميلة ونادرة عبرت عن المعاني المادية المجردة بصور حسية ملموسة، وهنا استخدم التصوير الوصف والتشبيه للتعبير عن الصورة بأشكالها وأبعادها.

(1) صفة الجنة: 19.

(2) التصوير الفني في الحديث النبوي: 571.

(3) هو عطاء بن يسار الهلالي أبو محمد المدني مولى ميمونة ثقة فاضل صاحب مواعظ وعبادة. ت 94هـ. ينظر: تقريب التهذيب: 392/1.

(4) صفة الجنة: 29. ومعنى شماريخها: مفردا شراخ، وهو الذي عليه البسر. ومعنى عراجينها: ومفردا عرجون: وهو العود الأصفر الذي فيه شماريخ العذق. ومعنى نقادها: مفردا نقدة، والنقد صغار الغنم، ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر: 500/2، 203/3، 104/5.

(5) صفة الجنة: 34.

(6) المصدر نفسه: 50. الحديث رواه مسلم: 4/ 2180. وهذا الحديث فيه تشبيه جميل ودقيق ومعناه : تتحول فضلات الإنسان إلى عطر .

﴿ الدراسة الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

ومنه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال " لكل مسلم خيرة" ⁽¹⁾ ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، تدخل عليها كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة، لم يكن قبل ذلك، لا مرهات، ⁽²⁾ ولا زفرات، ⁽³⁾ ولا بخرات، ⁽⁴⁾ ولا طمحات، ⁽⁵⁾ حور عين كأخن بيض مكنون". ⁽⁶⁾

لا بد من الإشارة إلى أن هذه الصورة في إطارها العام صورة قرآنية، ⁽⁷⁾ وهي معتمدة على الوصف والتشبيه.

ومنه عن صيفي اليماني قال " سألت عبد العزيز بن مروان عن وفد أهل الجنة قال: إنهم يوفدون إلى ربهم عز وجل في كل يوم خميس، فيوضع لهم أسيرة كل إنسان منهم أعرف بسريره منك بسريرك هذا الذي أنت عليه. قال: وأقسم صيفي على ذلك، فإذا قعدوا عليه، وأخذ القوم مجالسهم، قال تبارك وتعالى: عبادي عبادي وخلقي وجيراني ووفدي أطمعهم، قال: فيؤتون بطيرٍ بيض أمثال البخت، فيأكلون منها ما شاءوا، ثم يقول عبادي وخلقي وجيراني ووفدي قد طعموا أسقوهم، فيأتون بآنية من ألوان شتى مختمة فيسقون منها، ثم يقول عبادي وخلقي وجيراني ووفدي قد طعموا وشربوا فكهوهم، فيجيء ثمرات الشجر مدلى فيأكلون منها ما شاءوا، ثم يقول عبادي وخلقي وجيراني ووفدي قد طعموا وشربوا وفكهوهم، أكسوهم، فتجيء ثمرات شجر أصفر وأخضر وأحمر، كل لون لم تنبت إلى الحلل، وأقسم صيفي ما أنبتت غيرها، فتتشر عليهم حللاً وقمصاً ثم يقول: عبادي وخلقي وجيراني ووفدي قد طعموا

(1) الخيرة: مفرد خيرات. وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق والحسنة الوجه. ينظر: مختصر تفسير ابن كثير: 424/3.

(2) المرهات: والمرهات التي لا تكتحل، والمره مرض يصيب العين من ترك الكحل. وقد لعن الرسول ﷺ المرهات. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: 4 / 321.

(3) المصدر نفسه: 50. وهذا الحديث فيه تشبيه جميل ودقيق ومعناه: تتحول فضلات الإنسان إلى عطر.

(4) بخرات: وهو تغيير ربح الفم، ومنه حديث (إياك وكل مجفرة بمخرة) يعني من النساء. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: 1 / 101.

(5) طمحات: امتداد النظر إلى الغير. ومنه حديث (كنت إذا رأيت رجل ذا قشر طمح بصري إليه) أي امتد وعلا. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: 3 / 138.

(6) صفة الجنة: 94.

(7) ومن الاستشهاد بالقرآن الكريم على هذه الصورة قوله تعالى " فيهن خيرات حسان " سورة الرحمن: 70. وقوله تعالى " حور مقصورات في الخيام " سورة الرحمن: 72. وفي الحديث (أن الحور العين يغنين) للحديث " نحن خيرات حسان، نحبنا لأزواج كرام "

وشربوا وفكهوا وكسوا طيباً ولأَتَجَلَّيْنَّ لهم حتى ينظروا إليَّ. فإذا تجلَّى لهم عز وجل فنظروا إليه نضرت وجوههم، ثم يقال لهم: أرجعوا إلى منازلكم. فيقول لهم أزواجهم: خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها، فيقولون: ذلك أن الله عز وجل تجلَّى لنا فنظرنا إليه فنضرت وجوهنا". (1)

ومثله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول " ألا أخبركم بأفضل أهل الجنة درجة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: رجل يدخل الجنة من باب الجنة، فيلتقاه غلمان، فيقولون مرحباً بسيدنا، قد آن لك أن تزورنا، قال: فتمد له الزرابي أربعين سنة، ثم ينظر عن يمينه وعن شماله فيرى الجنان فيقول لمن هذا؟ فيقال: لك. حتى إذا انتهى رفعت له ياقوته حمراء وزبرجدة خضراء لها سبعون شعباً، في كل شعب سبعون غرفة، في كل غرفة سبعون باباً. فيقولون: أقرأ وارقه. فيرقى، حتى إذا انتهوا إلى سرير ملكه اتكأ عليه، سعته ميل في ميل، له فيه فصول، فيسعى إليه بسبعين صفحة من ذهب، ليس فيها صفحة من لون أختها، يجد لذة آخرها كما يجد لذة أولها، ثم يسعى عليه بألوان من الأشربة. فيشرب منها ما اشتهى، ثم يقول الغلمان: اتركوه وأزواجه. فينطلق الغلمان. ثم ينظر فإذا حوراء من الحور العين جالسة على سرير ملكها عليها سبعون حلة، ليس منها حلة من لون صاحبته، فيرى مخ ساقها من وراء اللحم والدم والعظم والكسوة فوق ذلك، فينظر إليها فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من الحور العين، من اللاتي خبئن لك، فينظر إليها أربعين سنة، لا يصرف بصره، ثم يرفع بصره إلى الغرف فوقه، فإذا أخرى أجمل منها، فتقول: أما آن لك أن يكون لنا فيك نصيب؟ فيرتقي إليها أربعين سنة، لا يصرف بصره عنها حتى إذا بلغ النعيم منها كل مبلغ، وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلَّى لهم الرب عز وجل، فينظرون إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى فيقول: يا أهل الجنة هللوني، فيتجاوبون بتهليل الرحمن، ثم يقول: يا داود قم فمجدني كما كنت تمجني في الدنيا، فيمجد داود ﷺ ربه عز وجل". (1)

(1) صفة الجنة: 99-100 .

(1) المصدر نفسه: 101. الحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب: 278/4. وعزاه للمصنف، قال في سنده من لا أعرفه.

هذا النص عبارة عن لوحة فنية معتمدة على الوصف الدقيق، وقد أطلعنا الحافظ ابن أبي الدنيا عليها، والنص في إطاره العام يدل على اتساع الجنة ونعيمها الدائم، وقد جسد النص صورة الحوار الرائع بين الرجل وبين غلمانها والخور العين في شكل أطراف، يتبادلون فيه الكلام ويتجاذبون أطيبه في التعبير عن لذة النعيم. وقد أثار النص مفاجأتين، الأولى: عند ما يرى الجنان، فيقال هي لك. والثانية: عند ما يرى الخور العين بصورتها الشفافة. إذ يرى مخ ساقها من وراء اللحم والدم والعظم والكسوة، فيفاجأ بقولهن: نحن اللائي خبئنا لك. إنها صورة عجيبة حقاً تهز النفس هزاً.

وما نقف عليه في معظم مصنفاته نجد أن النصوص مبنية على التأثير النفسي بوسائط الجمال الفني (التشبيه، الاستعارة، الكناية، المجاز) وغيرها. ففي كتابه صفة النار نجد الصور متوفرة بكثرة، وقلما نجد نصاً من النصوص يخلو من الصور، وقد اخترت منه هذه الصور، ففي الحديث الشريف يقول ﷺ " إن النار لا ينام هاربها، وإن الجنة لا ينام طالبها، اطلبوا الجنة جهدكم، واهربوا من النار جهدكم".⁽²⁾ فهنا الصورة معتمدة على الكناية، ومعنى (لا ينام هاربها) كناية عن الخوف وهو المعنى البعيد. ومعنى (لا ينام طالبها) كناية عن العمل والجد والسعي من أجلها.

ومنه ما رواه الحسن البصري عن النبي ﷺ " أنه كان إذا ذكر يوم القيامة ومقامهم (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) محزونين نادمين قد اسودت وجوههم وازرقت أبصارهم، وقلوبهم عند حناجرهم، يبيكون الدموع، وبعد الدموع الدم، حتى لو أرسلت السفن المواقير في دموعهم لجرت، قد عظموا لجهنم مسيرة ثلاثة أيام ولياليها للراكب الجواد، وإن ناب أحدهم لمثل الجبل العظيم، وإن دبره لمثل الشعب، مغللة أيديهم إلى أعناقهم، قد جمع بين نواحيهم، وأقدامهم، يضربون بالمقامع وجوههم وأدبارهم، يساقون إلى جهنم. فيقول العبد للملك: ارحمني. فيقول: كيف أرحمك ولم يرحمك أرحم الراحمين؟ وجهنم يحمى عليها من أول الدهر إلى يوم القيامة على طعامها وشرابها وأغلالها، فلا يفنى حرها ولا حماها. ولو أن غُلاً منها

(2) صفة النار: 17. الحديث رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: 10/ 230. وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار عنه وفيه يعلى بن الأشدق وهو ضعيف جداً.

وضع على جبال الدنيا لرضضها، ولو أن عذاب الله كان بينهم وبين جبل مسيرة خمسمائة سنة لذاب ذاك الجبل. طعامهم من نار، تحذى لهم نعال من نار، وخفاف من نار في سردان. وأطول عذاب النار في الأجساد أكلاً أكلاً، وصهراً صهراً، وحطماً حطماً، بدنٌ لا يموت، حجر مرصد، وإنهم في السلسلة من آخرهم، فتأكلهم النار، وتبقى الأرواح في الحناجر تصرخ، تدعو بالويل والحسرة والندامة، وإنها لتأكل لهم كل يوم سبعين ألف جلد، فتعوذ بالله من النار". (1)

فألفاظ الحديث التي صورت العذاب وعبرت عن أشكاله وأنواعه وأحواله، قد ذكرت في أحاديث وآثار متعددة في كتاب (صفة النار) وقد جمع هذا الحديث ذلك الشتات من الأوصاف، وجمّعها في نص واحد يبرز أهمية هذا الأمر الغيبي الذي يرهب سامعه، ويلقي في رُوعه الخشية والرغبة، فهي صور تثير في النفس معاني كثيرة تعبر عن صورة العظمة الإلهية من جانب، والضعف البشري من جانب آخر، كما تعبر عن هول العذاب وشدته وعظمته، مما يترك في النفس استشعار الألم والتحسس به، فيؤدي إلى الفرع الخوف الشديد. فصورة البكاء والدمع الكثير الذي لو أرسلت السفن المحملة الثقيلة فيه لسارت، فهي صورة تعبر عن محزون شديد الحزن قد أصابه خطب عظيم، وهذه المعاني المعبرة فهمت من تداعي النص (البكاء الكثير) والذي بسبب تداعيه عبر لنا عن صور عديدة منها شدة الحزن وشدة الألم وغيرها. وكذلك صورة (ناب الكافر وديره) فقد شبهها الحديث تشبيهاً مفرعاً مخيفاً، إذ صور بشاعة المنظر، وسوء الحالة لما عليه من العذاب الشديد. إنها صورة قائمة على المشابهة والوصف الدقيق، فصور الحديث غيبية لا ينتهي تعجبنا منها ودهشتنا، إذ هي صورة غريبة جداً لم نعهدها.

ومنه عن شفي بن مائع الأصبحي (1) قال " في جهنم جبل يدعى صعوداً، يطلع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يرقاه، قال الله عز وجل (سأرهقه صعوداً) وإن في جهنم قصراً

(1) صفة النار: 33-34. قال الخقق: لم أتمكن من تخريج الحديث الذي وردت بضعة أسطر منه في كتاب الأوهال للمصنف صفحة 144، قال فيه محققه: ضعيف وإسناده مرسل. ومعنى المواخير: أي الحملية الثقيلة. ومعنى الشعب: انفراج بين جبلين، ومعنى السردان: (1) هو أبو عثمان المصري ثقة أرسل حديثاً، فذكره بعضهم في الصحابة خطأ. مات في عهد هشام بن عبد الملك. ينظر: تهذيب الكمال: 543 / 12.

يقال له **هوى**، يرمى الكافر من أعلاه فيهوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ أصله قال الله عز وجل (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) وإن في جهنم وادياً يدعى غياً، يسيل قيحاً ودماً، فهو لمن خلق له، قال تعالى (فسوف يلقون غياً) وإن في جهنم وادياً يدعى أثاماً، فيه حيات وعقارب في فقار إحداهن مقدار سبعين قلة سم، والعقرب منهن مثل البغلة المؤفكة، تلدغ الرجل فلا يلهيه ما يجد من حر جهنم حموة لدغتها، فهو لم خرج له. وإن في جهنم سبعين داء، كل داء مثل جزء من أجزاء جهنم ⁽²⁾.

لا بد من الإشارة إلى أن هذا النص في إطاره العام صورة قرآنية وهو معتمد على التشبيه والوصف لألوان العذاب في جهنم وما فيها من جبال وأودية من نار، ويدل هذا على سعة جهنم وضخامتها، فهو خيال من نمط خاص، وهذه الألفاظ ذات دلالة معنوية حولها الرجل إلى صور محسوسة.

ومنه عن أبي المنهال الرياحي ⁽³⁾ أنه بلغه " أن في النار أودية في ضحضاح من النار، في تلك الأودية حيات أمثال أجوان الإبل، وعقارب كالبعال الخنس، فإذا سقط إليهن شيء من أهل النار أنشأن به لسعاً ونشطاً حتى يستغيثوا بالنار فراراً منهن وهرباً منهن ⁽⁴⁾. ومثله عن عطاء بن يسار قال " قلت لكعب من ساكن الأرض الخامسة؟ قال: حيات جهنم، قلت: وإن لها لحيات؟ قال: نعم. والذي نفسي بيده كأمثال الأودية! قلت: فمن ساكن الأرض السادسة؟ قال: عقارب جهنم، قالت: وإن لها لعقارب؟ قال: إي والذي نفسي بيده كأمثال القلال، وإن لها لأذناناً كأمثال الرماح، تلقى إحداهن الكافر فتلسعه اللسعة فيتناثر لحمه على قدميه ⁽¹⁾."

فمن البراعة والإبداع الفني الذي نقف عليه في هذين النصين أننا نرى أن عناصر الإثارة والتأثير فيهما تجعل متلقي مستقبل الفكرة ويقتنع بها وذلك بالاعتماد على عناصر

(2) صفة النار: 40-41. أورده المنذري في الترهيب والترهيب: 254/4. وقال رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً عليه وفي صحته خلاف. ومعنى المؤفكة: المشدود عليها الإكاف، أو الوكاف، وهو البردعة.

(3) هو سيار الرياحي البصري ثقة. ينظر: تهذيب الكمال: 308 / 12.

(4) صفة النار: 45-46. ومعنى الضحضاح من الماء القليل الذي لا عمق فيه. ومعنى نشطته الحية: عضته.

(1) صفة النار: 71-72. والقلال جمع قلة، وهو إناء من فخار كالجرة.

واقعية مستوحاة من البيئة والمجتمع. فالعقارب والحيات مستوحاة من البيئة والمجتمع، ولكن ليست كما نعهدها ونشاهدها في حياتنا. إنها أمثال الإبل والبغال في الضخامة تارة، وأمثال الأودية والقلال تارة أخرى. ومن الغرابة في النص أن العقارب لها أذنان أمثال الرماح، إذا لسعت الكافر تنأثر لحمه على قدميه، وكأن انفجار حدث بهذه اللسعة.

ومنه عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أسرّ إليه حديثاً فقال " يا حذيفة إن الله إذا قال لأهل النار (اخسئوا فيها ولا تكلمون) عادة وجوههم قطع لحم ليس فيها أفواه ولا مناخر، يتردد النفس في أجوافهم، وإنه لتسقط عليهم حيات من نار وعقارب من نار، لو أن حية منها نفخت من المشرق لأحترق من المغرب، ولو أن عقرب منها ضربت أهل الدنيا لأحترقوا من آخرهم، وإنها لتسلط عليهم فتكون بين لحومهم وجلودهم، وإنه ليسمع لها هناك جبلة كجبلة الوحش في الغياض ". (2)

(2) صفة النار: 73. قال المحقق: في السند من لم أقف على ترجمته، ومنصور بن عامر ضعيف، ومعنى الجبلة: الصياح والصخب، ومعنى الغياض: جمع غيبة: وهو الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف.

ومنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " إن رجل ليجرُّ إلى النار يوم القيامة، فتشبهق إليه النار شهيق البغلة إلى قضيبها، ثم تفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف! ".⁽¹⁾

فهذه الصورة من صور النار التي تعبر عن شدة بأسها وقوة وقعها في النفس في ضوء عبارة النص. ففي قوله (فتفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف) هو تصوير لشخص غضب أو أسد هائج خرج من عرينه أغضبه كل شيء، فهو بصورته يخيف كل من حوله. وهكذا جهنم في زفرتها.

ومنه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ " يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، ثم يقال: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، ويقال: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت. ثم يؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) وأشار بيده إلى الدنيا ".⁽²⁾

فهذا الحديث يعرض فناء الموت بمشهد رائع، فقد صورته بصورة كبش وهو الشيء المناسب للذبح، الذي تزهق روحه ويفنى. ثم وصفه بالأملح، وهو وصف للكابوس المرعب، وهو مشهد يعرض صورة متحركة، فقوله (يؤتى به، ويوقف به، وينادى بهم، ويشرئبون، وينظرون، ويؤمر به) فالأفعال في النص جاءت بصفة المضارع، مبالغة في الحركة والاستمرار في متابعتها واكسائها صفة الواقعية، حتى تبدوا الأحداث وكأنها تجري الآن.

ويبرز في الحديث الحوار الذي يزيد النص حيوية و تجدداً، كما فيه الإشارة إلى الاستشهاد بالقرآن الكريم، وفيه الإشارة باليد، وهي لون من ألوان التصوير إذ بها تتوضح الفكرة ويتبين المراد، وهذا من التناسق في أجزاء الصورة.

(1) صفة النار: 107-108.

(2) صفة النار: 159. الحديث رواه البخاري: 4 / 1760.

ومثله عن الحسن في قوله تعالى (وأُنذِرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) قال "أزفت والله عقولهم وطارت قلوبهم، فتزدت في أجوافهم بالغصص إلى حناجرهم لما أمر بهم ملك يسوقهم إلى النار، فيقول بعضهم لبعض (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) فينادون (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)".⁽¹⁾

فالأثر فيه صورة في شكل استعارة في قوله (أزفت عقولهم وطارت قلوبهم) فإن العقول والقلوب لا تأزف حقيقة ولا تطير، وإنما عبر عنها بذلك ليؤدي صورة الهول الذي بلغوه والرعب الذي أحاط بهم.

إن حرص الحافظ ابن أبي الدنيا على التعبير عن المعاني بالصور الحسية جعل نصيب (التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز) كبيراً جداً في مصنفاته، فقد عرض في مصنفاته عدد كبير من الأحاديث والآثار يبرز فيه الجمال الفني الرائع، وبالأخص في كتابه (العيال) وقد اخترت منع النماذج التي تعبر عن العلاقات الاجتماعية ومنها: عن أبيب الدرداء قال " إتقوا دمة اليتي، ودعوة المظلوم، فإنهما يسيران بالليل والناس نيام ".⁽²⁾

فقوله (يسيران بالليل والناس نيام) تعبير كنائي عن استجابة دعوة المظلوم و اليتيم، إذ لا يؤثر فيها صخب النهار، وأصوات المخلوقات التي تتعالى في وسط النهار، بل يمهدها سكون الليل، وكأنها تسمع كل شيء.

ومنه عن أيوب السخيتاني قال " لو أعلم أن عيالي يحتاجون إلى جزيرة بقل ما قعدت معهم ".⁽³⁾

فهذا الأثر يعبر بالصورة الكنائية عن شيء ربما لايهتم به كثير من الناس، ولا يجعلون له أهمية، فعبر بهذه الصورة عن أهميته وعلو منزلته، وهو العمل من أجل كسب العيش والنفقة على العيال. ومثله عن إبراهيم النخعي قال " كان خصب القوم في بيوتهم وفي لباس أحدهم تجوز ".⁽⁴⁾

(1) صفة النار: 153.

(2) العيال: 814/2.

(3) المصدر نفسه: 548/2.

(4) المصدر نفسه: 553/2.

ومن الصور التي انتقاها الحافظ ابن أبي الدنيا في هذا الكتاب - وهي صور معتمدة على التشبيه - حديث " إن للمرأة في حملها إلى وضعها إلى فصاها من الأجر، كالمتشحط في سبيل الله، فإن هلك في ما بين ذلك فلها أجر شهيد " (1) وقول عائشة رضي الله عنها " المغزل في أذن المرأة مثل الرمح في أذن الغازي " (2) عبر هذا النص بصورة تشبيه ليقرّب معنى بعيد عن الذهن، ليصبح بين يدي المتلقي، وتضمنت هذه الصورة التشبيهية كناية عن عمل المرأة في قولها (المغزل بيد المرأة).

ومن التشبيهات الرائعة، تشبيه المرأة بالضلع الأعوج، ففي الحديث " المرأة كالضلع الأعوج، إن تحرص على إقامتها تكسرهما، وإن تركته تستمتع به وفيه عوج " (3) فالعوج في أصل خلقة المرأة وهو ليس عيباً، بل هو تصريح بطبيعة خلقتها، وقد ورد في حديث آخر أن أصل العوج أعلاه، ويرمز إلى العقل والاعوجاج في العقل يقصد به تغليب العاطفة على التعقل، وهذا أمر كائن في المرأة، فهو تصوير رائع ودقيق لطبيعة المرأة. وتتجلى روعة اختيار الحافظ ابن أبي الدنيا للصور في مصنفاته، ومنها كتابه (الصمت وآداب اللسان) جاء فيه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال " قلت يا رسول الله، ما النجاة؟ قال : أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك " (4).

ويتضمن النص عبارات قصيرة مختزلة، إلا أنها حملت معاني بيانية تصويرية متعددة، ففيها استعارة (أملك عليك لسانك) استعار لفظ الملك لدلالة على الإمساك به والسيطرة عليه، وفيه كناية (وليسعك بيتك وابك على خطيئتك) فالأولى كناية عن اعتزال الفتنة، والثانية عن الندم. فالصورة متكاملة ظهرت أبعادها مجسمة واضحة، وهي لوحة تشكيلية مكونة من الحكمة والحلم والأناة، ورفع الخلق وغيرها من الفضائل التي استوعبتها الصورة بوساطة الاستعارة والكناية.

(1) العيال: 568/2.

(2) المصدر نفسه: 583/2.

(3) المصدر نفسه: 655/2. الحديث رواه البخاري: 5 / 1987.

(4) الصمت وآداب اللسان: 176. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 299/10.

ومثله عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قالت " يا رسول الله، أناخذ بما نقول؟ قال ثكلتك أمك يا ابن جبل، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ".⁽¹⁾
ومن الكنايات الرائعة حديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ".⁽²⁾ ففي الحديث كناية عن صفة، وهي الغنيمة والسلامة. ودفع الشر الذي يحصل بسبب هذر الكلام وفحشه.

ومنه حديث " يتحدثون من شر عباد الله يوم القيامة: ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بحدِيث هؤلاء، وهذه بحدِيث هؤلاء ".⁽³⁾ فقد عبر الحديث عن المنافق والواشي تعبيراً مصوراً بدقة، إذ أن المنافق يلبس لكل فئة من الناس الوجه الذي يرضون به عنه، ويظهر أمامهم بمظهر الخير والإصلاح.

وأن أكثر الصور الجميلة التي وقفت عليها في مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا مما يتصل (بعالم الغيب) - تعود إلى الإدراك العقلي وقدرة البشر على الإحساس بها وتخيلها - تحتاج إلى بيان وتقريب وإفهام، ولإيضاح ذلك الأمر كان التصوير وسيلة فعالة لأدراك ذلك كله، ومن الأحاديث والآثار التي تضمنت صوراً فنية جميلة ما جاء في كتاب (العقوبات) عن مسعر⁽⁴⁾ قال " بلغني أن ملكاً أمر أن يخسف بقرية فقال: يا رب فيها فلان العابد، فأوحى الله تعالى إليه أن به فأبدأ، فإنه لم يتمعر وجهه في ساعة قط ".⁽⁵⁾ فالنص معتمد على الكناية في قوله (لم يتمعر وجهه) وهي كناية عن صفة قريية، ولم يصرح بها، إنما ذكر بعض ما يلزمها في حال من الأحوال، وهو عدم تمعر الوجه. أي لم يظهر في الوجه ما يدل على غضبه على محارم الله وحرصه على الإصلاح، والقرب واضح في الكناية من خلال قسمات الوجه، وأثرها على واقع حال الإنسان، إذ تظهر عليه بعض الصفات الكامنة، فالخجل علامته احمرار الوجه، و المرض علامته اصفراره، والغضب علامته تمعر الوجه .

(1) الصمت وآداب اللسان: 180. الحديث رواه الترمذي: 11 / 5.

(2) المصدر نفسه: 213. الحديث رواه البخاري: 5 / 2240.

(3) المصدر نفسه: 372. الحديث رواه البخاري: 5 / 2251.

(4) هو مسعر بن كدام بن ظهير أبو سلمة، لم يكن في زمانه مثله. توفي في الكوفة سنة 152 هـ. ينظر صفوة الصفوة: 3 / 129.

(5) العقوبات: 28.

ومثله حديث " بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهو متبعاًً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، صبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون على مثل عمله ". (1) ومثله حديث " يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء، قال: ممّ ذاك؟ قال: من المنكر لا يستطيع يغيره ". (2)

ومنه عن مالك بن دينار قال " يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، فقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض، فيصيب الحشّ فتكون فيه الحبة، فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتر وتخضر، فيا حملة القرآن! ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟ ". (3) فالنص فيه تشبيه تمثيلي، إذ مثل نزول الغيث على الأرض وتأثيره في الحبة في اهترائها واخضرارها، فهذه الصورة المحسوسة شبهت بها صورة معقولة غير محسوسة، وهي أثر القرآن في القلوب، إذ القلب يهتز له وينبت فيه الإيمان ويثبته ويزيده.

ومنه عن حماد بن سلمة قال " ليست اللعنة سواداً يرى في الوجه، إنما هي ألا تخرج من ذنب إلا وقعت في ذنب ". (4) فالنص جاء التعبير فيه مجازياً في شقيه، ففي الأول عبر عن توضيح اللعنة أنها ليست أمر سطحيّاً يظهر للرائي، إنما هي أمر سلوكي خلقي. وهو ما عبر عنه في الشق الثاني من النص بقوله (إنما هي ألا تخرج من ذنب وتقع في ذنب) وهي كناية عن الاستمرار في الذنب. ومثله عن قتادة قال " إن دواب الأرض تدعوا على خطائي بني آدم إذا احتبس القطر في السماء يقولون: هذا عمل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم ". (1)

(1) العقوبات: 44. الحديث رواه الترمذي: 5/ 257.

(2) المصدر نفسه: 47. الحديث أورده الديلمي في الفردوس: 5/ 440.

(3) المصدر نفسه: 66. فالعبارتان الأخيرتان أصلهما أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورة؟ بين مما عملتم فيهما .

(4) المصدر نفسه: 67.

(1) العقوبات: 69.

ومنه حديث " لن تقوم الساعة حتى يظهر الفحش، وقطيعة الرحم، وسوء الجوار، ويؤمن الخائن، ويخون الأمين، قيل: يا رسول الله. فكيف المؤمن يومئذ؟ قال: كالنحلة، وقعت فلم تكسر، وأكلت فلم تُفسد، ووضعت طيباً، أو كقطعة من ذهب ادخلت النار، فأخرجت فلم تزد إلا خيراً".⁽²⁾ بين النص حالة الإيمان ساعة الفتنة ونزول المصائب وظهور علامات الفتن العظمى، فكيف يكون الإيمان ساعتها؟ يكون ما يشابه النحلة، لكونها (وقعت فلم تكسر وأكلت فلم تفسد ووضعت طيباً) فهو تشبيه تمثيلي.

ويتجلى انتقاء الحافظ ابن أبي الدنيا للصور البيانية الرائعة في ضوء مصنفات أخرى، منها كتابه (قصر الأمل) الذي جاء فيه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " يهرم ابن آدم وتشب منه اثنان، الحرص على المال والحرص على العمر ".⁽³⁾ ومثله حديث " لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين، في حب المال وطول الأمل ".⁽⁴⁾ عبر الحديثان عن المعنى بالمقابلة بين هرم ابن آدم في السن وشباب قلبه في حب المال وطول العمر، وإن هذه المقابلة تزيد في وضوح الصورة، وهي هنا صورة حقيقية تشمل معظم الناس في كل زمان ومكان، ففي الحديث تشخيص للحرص على المال والعمر، فهما يشبان ويهرمان، وتشخيص للقلب الذي يبدوا شاباً ولا يزال شاباً مهما هرم صاحبه. وإن المقابلة فن بديعي، لكنها قامت على صورة الاستعارة في النص.

ومنه حديث " مالي وللدنيا؟ ومال للدنيا ومالي؟ والذي نفسي بيده، ما مثل ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها".⁽⁵⁾ ففي هذا النص تجلت الصورة الفنية البديعية من خلال التشبيه التمثيلي، وهو تشبيه الصورة، إذ شبه النبي ﷺ الدنيا وسرعة زوالها وعدم استقرار حالها بصورة رجل راكب سار في يوم حار فدعاه الحر إن يستظل تحت شجرة ساعة من نهار، وسرعان ما مرت الساعة فراح وتركها.

(2) المصدر نفسه: 208. الكلمات: كالنحلة وردت في الأصل: كالنحلة، وتكسر: وردت في الأصل: تُكسر، وتفسد، وردت في

الأصل: تفسد. الحديث روى القسم الأول منه الإمام أحمد في مسنده: 162/2.

(3) قصر الأمل: 36. الحديث رواه البخاري بلفظ مختلف: 5 / 2360.

(4) المصدر نفسه: 49. الحديث رواه البخاري: 5 / 2360.

(5) قصر الأمل: 98. الحديث رواه أحمد في مسنده: 1 / 301.

ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال " خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً، وخط وسطه، وخط خطوطاً، هكذا إلى جانب الخط، وخط خارجاً، فقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا الإنسان للخط الذي في وسط الخط، وهذا الأجل محيط به، وهذه الأعراض الخطوط تنهشه، إن أخطأ هذا نهشه ذاك، وذلك الأمل للخط الخارج".⁽¹⁾

هذا لون جديد في التصوير إذ الحديث يجسم المعنى ويقربه من ذهن المتلقي، ويجعله يتصور المراد، والرسم لون من ألوان التعليم، وأسلوب من أساليب التوضيح، ويبدو أن موضوع الأجل والأمل من المواضيع التي حرص الحافظ ابن أبي الدنيا على توضيحها وبيان أهميتها، حتى أفرد لها مصنفاً خاصاً وهو قصر الأمل.

☆ المبحث الثاني: فن الوصف.

يشغل الوصف مساحات كبيرة في الأدب العربي شعراً ونثراً، حتى أننا ما قرأنا ديوان شعر أو قطع نثر، إلا كان الوصف شاخصاً في الكثير منهما، أو داخلاً في ثناياها. ومعنى الوصف في اللغة: الإبانة والظهور. قال ابن رشيق في العمدة " وأصل والوصف الكشف والإظهار، يقال: وصف الثوب الجسم إذا نم عليه ولم يستره ".⁽¹⁾ وأما اصطلاحاً: فيعد الوصف حلية الأسلوب في النقد القديم، ولعل قدامة بن جعفر أول من تحدث من النقاد العرب عن الوصف فقال " الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئة ".⁽²⁾ وعرفه بعض المحدثين بأنه تصوير الظواهر الطبيعية، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلاً يصل إلى الأعماق. ⁽³⁾ أو هو " إنشاء يراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص، أو إحساس أو زمان للقارئ أو المستمع، وفي العمل الأدبي يخلق الوصف البيئة التي تجري فيها أحداث القص ".⁽⁴⁾ والوصف " يقف عن الأشياء والأشخاص كعناصر متجاوزة متعاصرة، ويراهما كمشاهد، فكأنه يلغي الزمن من حسابه، ويعتد بالمكان فحسب ".⁽⁵⁾

والوصف فن قديم، قدم وقوع عين الإنسان على معالم الحياة وشواخصها، ففن الوصف أول ما نطق به الشعراء، يقال أنه أقدم الفنون على الإطلاق ⁽⁶⁾ ويعد الوصف الدقيق المصور المتدفق من العاطفة أبلغ وسيلة تصويرية، وربما كان أبلغ من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو الوسائل المألوفة في التصوير إذ هو ينقل لك المشاهد شاخصة أمام عينيك، تكاد تتحسسها بجواسك، وتلمسها بيديك، وليس الوصف مجرد تصوير فوتوغرافي آلي، ولكنه

(1) العمدة، ابن رشيق: 295/2. وينظر: لسان العرب، مادة (وصف).

(2) نقد الشعر، قدامة بن جعفر: 118.

(3) الوصف في الشعر العربي، عبد العظيم قناوي: 42/1.

(4) معجم المصطلحات في اللغة والأدب: 433.

(5) نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل: 441.

(6) ينظر: الوصف في الشعر العربي: 43/1.

تصور إدراكي. ويسموا شأن الوصف في التصوير عند ما يكون الموصوف أمراً غيبياً لا سبيل إلى نقله إلا عن هذا الطريق الذي يتخيله السامع واقعاً ملموساً يراه بعينه ويلمسه بيديه (1) وللوصف في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا قيمة كبيرة في كشف المعاني وتعميق الدلالة وتحديد المفاهيم وتحرير المراد، فبه تكمل الصورة التي تطمئن إليها النفس اطمئناناً لا تطلب بعده المزيد، فالوصف عنده وسيلة التشخيص الأساسية في رسم الشخصيات والأشياء. ومن خلال دراستي الطويلة لمرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا في الفصلين الأول والثاني، مرت بي لوحات وصفية رائعة، رسمت الموصوف بطريق يكاد يكون واقعاً ملموساً ومشهداً مدركاً، وقد تعددت وتنوعت المضامين و الموضوعات التي دار عليها الوصف، فمنه ما كان موضوعه المغيبات، كوصف الجنة والنار، ومنه ما كان موضوعه رسم الخطوط الشكلية للشخصية، وإبراز سلوكها وطبائعها، ومنه ما كان وصفاً للحيوان، وهناك أوصاف متفرقات نذكرها فيما بعد.

وصف الجنة والنار:

لاشك أن الحافظ ابن أبي الدنيا متأثر في وصف الجنة والنار بالنص القرآني والنبوي، وأغلب مرويّاته المتعلقة بالجنة والنار من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ويلاحظ في مرويّاته الوصفية للجنة والنار التوسع والتضخيم عن الشكل الحرفي لما في القرآن الكريم، على نحو ما جاء في الحديث الذي فسر فيه ﷺ قوله تعالى " وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ " (2) قال " قصر في الجنة من لؤلؤة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيت من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش امرأة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة، فيعطي الله عز وجل المؤمن في غداة ما يأتي على ذلك كله " (3).

(1) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي: 491.

(2) سورة التوبة: الآية 72.

(3) صفة الجنة: 63. الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: 420/1. وقال: فيه جسر بن فرقد وهو ضعيف .

ومثله وصف أبي هريرة رضي الله عنه للجنة قال " دار المؤمن في الجنة لؤلؤ فيها أربعون ألف دار، فيها شجرة تنبت الحلل فيأخذ الرجل بأصبعيه، وأشار بالسبابة والأبهام، سبعين حلة منتظمة باللؤلؤ والمرجان".⁽¹⁾ ومثله وصف عكرمة قال " إن الرجل من أهل الجنة ليلبس الحلة، فتتلون في ساعة سبعين لونا".⁽²⁾

ففي توسعه هذا يجد لنفسه رخصة في كتاب الله تعالى القائل " وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ".⁽³⁾ ورخصة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم القائل " فيها ما عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ".⁽⁴⁾ ورخصة عند العلماء الذين أجازوا رواية الضعيف إذا كان في باب الرقائق.

ويأتي بصورة النار المضخمة، فيتوسع في وصف أهوالها عن الشكل الحرفي لما في القرآن الكريم، من ذلك ما رواه عن شهر بن حوشب ⁽⁵⁾ قال " إن في جهنم لوادي يقال له غساق، فيه ثلاثمائة وثلاثون شعباً، في كل شعب ثلاثون وثلاثمائة قصر، في كل قصر ثلاثون وثلاثمائة بيت، في كل بيت أربع زوايا، في كل زاوية شجاع، في رأس كل شجاع ثلاثون وثلاثمائة عقرب، في رأس كل عقرب ثلاثون وثلاثمائة قلة سُم، لو أن عقرباً منها نضحت أهل الدنيا لأوسعتهم ".⁽⁶⁾ ومثله وصف مجاهد للنار قال " إن لجهنم جباب حيات كأمثال أعناق البخت، وعقارب كأمثال البغال الدلم قال فيهرب أهل جهنم من تلك الحيات، فتأخذ تلك الحيات والعقارب بشفاههم، فتكشط ما بين الشعر إلى الظفر، قال فما ينجيهم منها إلا الهرب إلى النار ".⁽⁷⁾

(1) المصدر نفسه: 56.

(2) المصدر نفسه: 57.

(3) سورة فصلت: الآية 31.

(4) الحديث رواه مسلم: 4 / 2174.

(5) هو شهر بن حوشب الأشعري الشامي، قرأ القرآن على ابن عباس، وكان عالماً كثير الرواية، حسن الحديث. ت 100هـ. ينظر:

حلية الأولياء: 59/6.

(6) صفة النار: 74.

(7) المصدر نفسه: 75.

ويقوم الوصف في مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا من حيث علاقته بالموصوف ومدى إلمامه بأجزائه على نوعين:

(1) الوصف الأجمالي: وهو الذي يقوم بذكر قسم من أجزاء الموصوف على نحو ما جاء في تفسير سلمان الفارسي رضي الله عنه لقوله تعالى "كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا". ⁽¹⁾ قال "النار سوداء لا يضيء جمرها ولا لهبها". ⁽²⁾ ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه في وصف سعة جهنم قال "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة، فقال صلى الله عليه وسلم هل تدرّون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال "هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً انتهى في قعر جهنم". ⁽³⁾

(2) الوصف التفصيلي: وهو الذي يقوم بذكر معظم تفاصيل الموصوف، على نحو ما جاء في الحديث "أنه كان إذا ذكر يوم القيامة ومقامهم (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) محزونين نادمين، قد اسودت وجوههم، وازرقت أبصارهم، وقلوبهم عند حناجرهم، يكون الدموع وبعد الدموع الدم، حتى لو أرسلت السفن المواقير في دمعهم لجرت، قد عظموا لجهنم مسيرة ثلاثة أيام ولياليها للراكب الجواد، وإن ناب احدهم لمثل جبل العظيم، وأن دبره لمثل الشعب، مغلغة أيديهم إلى أعناقهم، قد جمع بين نواصيهم وأقدامهم، يضربون بالمقامع وجوههم وأدبارهم، يساقون إلى جهنم، فيقول العبد للملك: ارحمني، فيقول: كيف أرحمك ولم يرحمك أرحم الراحمين؟ وجهنم يحمى عليها من أول الدهر إلى يوم القيامة على طعامها وشرابها، وأغلاؤها، فلا يغني حرها ولا حماها، ولو أن غلاً منها وضع على جبال الدنيا لضررّضها، ولو أن عذاب الله كان بينه وبين جبل مسيرة خمسمائة سنة لذاب ذلك الجبل، طعامهم من نار تحذى لهم نعال من نار، وخفاف من نار، في سردان، وأطول عذاب النار في الأجساد أكلاً أكلاً، وصهراً صهراً، وحطماً حطماً، بدن لا يموت حجر موصد، وإنهم في

(1) سورة الحج: الآية 22.

(2) صفة النار: 28.

(3) المصدر نفسه: 23. ومعنى وجبة: سقطة.

﴿ الدراسة الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

السلسلة من آخرهم، فتأكلهم النار، وتبقى الأرواح في الحناجر تصرخ تدعوا بالويل والحسرة والندامة، وإنما لتأكل لهم كل يوم سبعين ألف جلد. فتعوذ بالله من النار " (1).

ومن اللوحات الوصفية التفصيلية في مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا وصفه ﷺ للجنة فقال " إن في الجنة لشجرة يقال لها طوبى لو سخر الراكب الجواد أن يسير في ظلها لسار فيه مئة عام، وورقها وبسرهما برود خضر، وزهرها رباط صفر، وفنائها سندس وإستبرق، وثمرها حلل، صمغها زنجبيل وعسل، وبطحائها ياقوت أحمر وزمرد أخضر، وتراهما مسك وعنبر، وكافورها أصفر، وحشيشها زعفران..... الحديث " (2) ثم يأخذ ﷺ يفصل في وصف الجنة ونعيمها، وهذا التفصيل في جزئيات الأشياء يفضي على النص الجمالية والروعة، وهناك لوحات وصفية يغلب عليها أسلوب التفصيل وتضخيم الموصوف. (3)

وصف الشخصية:

أما موضوع الشخصيات فقد جاء وصفها في مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا يرسم الخطوط الشكلية لها، ورسم طباعها وسلوكها، على نحو ما جاء في وصف آدم ﷺ " إن أباكم آدم كان طوالاً مثل النخلة السحوق ستين ذراعاً، وكان طويل الشعر، مواري العورة، فلما أصاب الخطيئة بدت له سوءته، فخرج هارباً في الجنة..... الحديث " (4) ومن وصف الشخصيات، ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا في وصف المتحابين في الله عز وجل، ورسم لمكانتهم الرفيعة التي تجعل الأنبياء والشهداء يغبطونهم على مكائنتهم، فجوهمهم نور، وهم على نور. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " إن من عباد الله، لعباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل من هم، لعلنا نجبههم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال ولا أنساب، وجوهمهم نور، وهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. ثم تلا " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " (1) (2)

(1) صفة النار: 33-34.

(2) صفة الجنة: 31. الحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب: 4/ 306. وقال: رواه ابن أبي الدنيا و أبو نعيم هكذا معضلاً ورفعاً منكراً.

(3) للمزيد من الأمثلة ينظر: صفة الجنة: 21، 77، 80، 98، 100. وكتاب صفة النار : 41، 74، 103، 107.

(4) الرقة والبكاء : 93. قال الحق ضعيف ، فيه محمد بن إسحاق وهو مدلس .

(1) سورة يونس: الآية 62.

نص يتجلى فيه الود والتفاؤل. فالمحتاجون هم الآمنون إذا خاف الناس، وهم الفرحون إذا حزن الناس.

وأورد الحافظ ابن أبي الدنيا عدة أحاديث رائعة في وصف الزاهدين في الدنيا، والراغبين في الآخرة، ومن ذلك ما رواه عن الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام قال " طوبى للزاهدين في الدنيا، والراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وتراها فراشاً ومائها طيباً، والكتاب شعاراً، والدعاء دثاراً، وأقرضوا الله قرضاً على منهاج المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله عليه ". (3)

وفي وصف المخلصين الأخفاء، أورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " طوبى للمخلصين، أولئك مصاييح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء ". (4) وأورد مثله عن كعب قال " إني لأجد في كتاب الله - عز وجل - صفة قوم ما رأيتهم بعد، شعته رؤوسهم، دنسة ثيابهم، إن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإن حضروا السدد لم يؤذن لهم، حاجة أحدهم تجلجل في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة على الخلائق لوسعهم ". (5)

ومن اللوحات الوصفية لرسم الشخصية، أورد الحافظ ابن أبي الدنيا لوحة وصفية جميلة لحال المؤمن في آخر الزمان عند ظهور الفتن، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لن تقوم الساعة حتى يظهر الفحش وقطيعة الرحم، وسوء الجوار، ويؤتمن الخائن، ويخون الأمين، وقيل يا رسول الله فكيف المؤمن يومئذ ؟ قال كالنحلة ، وقفت فلم تكسر ، وأملت فلم تفسد ، ووضعت طيباً ، أو كقطعة من ذهب أدخلت النار فأخرجت فلم تزد إلا خيراً ". (6)

(2) الإخوان: 45. الحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب: 4 / 13.

(3) التواضع والحمول: 114.

(4) الإخلاص والنية: 231. قال المحقق: أخرجه أبو نعيم في الحلية. والديلمي كما في فيض القدير، وسنده ضعيف جداً .

(5) التواضع والحمول: 111.

(6) العقوبات: 208.

﴿ الدراسة الفنية لأدب الرقائق في مرويات ابن أبي الدنيا ﴾

فالمؤمن عظيم الشأن دائماً فلا يعمل إلا طيباً ولا يقول إلا طيباً، وهو كسبيكة الذهب فلا يتغير لونها ولا يقل وزنها إذا عرضت على النار، وهكذا هو دائماً المؤمن في ثباته، لا تلويه المواقف، ولا تغيره الأحداث، ولا تعصف به ريح الفتن.

ومن اللوحات الوصفية لرسم الشخصيات أيضاً، ما أورده الحافظ ابن أبي الدنيا في وصف أقوام يخرجون آخر الزمان، فقال: قال رسول الله ﷺ " يخرج في آخر الزمان قوم، يحتلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس من مسوح الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، فيقول الله عز وجل: أبيّ تغترون، وعليّ تجترؤون؟ فيّ حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران ".⁽¹⁾ ومثله أيضاً عن رسول الله ﷺ قال " والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله عز وجل أمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأعواناً خونة، وعرفاء ظلمة، قراء فسقة، سيماهم سيماء الرهبان، قلوبهم أنتن من جيفة، أهواؤهم مختلفة، يفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة، فيتهاوكون فيها كتهاوك اليهود... ".⁽²⁾

ويتجلى من هذين النصين أن الوصف جاء عن طريق استحضار صورة المستقبل. فمن علامات الساعة أن يظهر قوم يتلونون، ويراغون في دين الله، فيلبسون ثياب الرهبان ويخدعون الناس بألسنتهم المعسولة، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، قلوبهم قلوب الذئاب الماكرة فهي أنتن من جيفة، وآراؤهم وأهواؤهم متضاربة.

وصف الحيوان:

ومن وصف الحيوان وصف الطير ورسمه رسماً بديعاً مؤثراً، فقد أورد الحافظ ابن أبي الدنيا عن رسول الله ﷺ قال " لو أنكم توكلتم على الله عز وجل حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً ".⁽³⁾ فقد جاء وصف هذه الطيور وصفاً دقيقاً فهي تغدوا بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف، فالله يرزقها من غير حيلة منها ولا تخطيط.

(1) العقوبات: 23. الحديث رواه الترمذي: 4 / 604.

(2) المصدر نفسه: 38. الحديث أورد قريباً منه الهيثمي في مجمع الزوائد: 5 / 238.

(3) التوكل على الله: 30. الحديث أوردته الحاكم في المستدرک: 4 / 354.

ومن وصف الطير ما جاء في هذه اللوحة الوصفية لطيور العذاب التي أرسلها الله على أصحاب الفيل عقاباً لهم، فقد أورد الحافظ ابن أبي الدنيا عن عبيد بن عمير قال "خرجت عليهم طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة".⁽¹⁾ وعنه أيضاً قال "أراد الله عز وجل أن يهلك أصحاب الفيل، فبعث عليهم طيوراً نشأت من البحر، بلقاً أمثال الخطاطيف، كل طائر منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة، حجرين في رجله وحجراً في منقاره".⁽²⁾

أوصاف متفرقة:

ومن اللوحات الوصفية الأخرى، ما أورده الحافظ ابن أبي الدنيا في وصف حجرات نساء النبي ﷺ فعن داود بن قيس قال " رأيت الحجرات من جريد مغشى من خارج بمسوح الشعر، وأظن عرض الحجرة من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ست أو سبع أذرع. وأُحْزِرَ البيت الداخل خمس أذرع، وأظن سمكه بين الثمان أو السبع أو نحو ذلك، قال: ثم وقفت على باب عائشة، فإذا هو مستقبل المغرب".⁽³⁾

وأورد لوحة وصفية أخرى في وصف وفاة الرسول ﷺ فعن عائشة قالت "إن رسول الله ﷺ قبض في بيتي ويومي وبين سحري ونحري، وجمع الله بين ريقه وريقه عند الموت، دخل عليّ أخي عبد الرحمن وأنا مسندة رسول الله ﷺ إلى صدري، ويده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذاك، فقلت: آخذه لك؟ فأوماً برأسه، أي نعم، فناولته إياه فأدخله في فيه، فاشتد عليه، فناولنيه، فقلت: ألينه لك؟ فأوماً برأسه، أي نعم، فلينته، فأمره وبين يديه ركوة أو قالت علبة، فجعل يدخل يده فيها ويمسح بها وجهه ﷺ ويقول: لا إله إلا الله إن للموت لسكرات، ثم نصب يده يقول: الرفيق الأعلى، الرفيق الأعلى، حتى قبض صلوات الله عليه، ومالت يده".⁽⁴⁾ وهناك أوصاف أخرى حوتها مصنفاته⁽⁵⁾

(1) العقوبات: 163.

(2) المصدر نفسه: 163.

(3) قصر الأمل: 162.

(4) المختصرين: 45. الحديث رواه البخاري: 4/ 1616.

(5) للمزيد من الأمثلة ينظر: الصمت وآداب اللسان: 358، 372. وكتاب صفة النار: 159. وكتاب قصر الأمل: 163،

ويوظف الوصف لأغراض عدة، ويرى بعض النقاد المحدثين أن وظيفة الوصف تنحصر في وظيفتين أساسيتين، هما الوظيفة التزينية، والوظيفة التفسيرية التوضيحية⁽¹⁾ ونحن نجد أن الوصف في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا يوظف لأغراض عدة، فقد يوظف الوصف لوظيفة التزين والتجميل، والغاية فيها تشجيع السامع وترغيبه في الموصوف، كما نجد ذلك في وصف الجنة ونعيمها، وقد يوظف للتهويل والتخويف، والغاية منه تحذير السامع وترهيبه من الموصوف، كما نجد ذلك في صفة النار وعذابها. وقد يوظف لزيادة التوضيح والتفصيل في الجزئيات، ذلك لأن الوصف قد يحمل معاني ودلالات أبعد من مجرد تصوير الأشياء.⁽²⁾

(1) ينظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي: 440-441. حيث أطلق على الأولى التجميلية وعلى الثانية التفسيرية.

(2) للمزيد من الأمثلة ينظر: كتاب صفة الجنة وكتاب صفة النار.

☆ المبحث الثالث: فن القصة.

القصص من أجمل الوسائل التصويرية في تعميق القيم والمفاهيم في النفس، لما لها من سحر يسحر النفوس ويؤثر فيها، والنفس الإنسانية ميالة بفطرتها لسماع القصص، فتجد في متابعة أحداثها المتعة والأنس، وقد تجد في أحداثها ما تهفوا إليه وتقصده. فيحقق ذلك فيها من الاستماع والتأثير ما لا يحققه لون آخر من ألوان الأداء اللغوي. يقول الراغب الأصفهاني: القص هو تتبع الأثر، وقصصت أثره، والقصص الأثر، قال تعالى (فارتدا على آثارهم قصصاً) وقوله سبحانه (وقالت لأخته قصيه) والقصص الأخبار المتبّعة. قال تعالى (إن هذا هو القصص الحق). (1)

فالقصة: مجموعة من الأحداث والأخبار المتسلسلة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة (2) وفن القصة من الفنون الأدبية البارعة في التصوير " الغرض منه الترويح عن النفس بما يتضمنه من لهو، وما يحتوي من تثقيف للعقل، وتهذيب للخلق بالحكمة والموعظة الحسنة ". (3) لذلك نجد أن القصة تسموا " كلما تغلغلت في دراسة الإنسان وواقعه ، وأكثر من عرض دخائله ودخائل الحياة ". (4)

لقد لقيت القصة عناية كبيرة، في ظل الإسلام، فقد عني بها القرآن الكريم عناية بالغة وسمّاها أحسن القصص، قال تعالى " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " (5) وإن في القرآن الكريم قصصاً شتى ذكرت وقائع الأمم الغابرة من الأنبياء والمؤمنين ومن الكفار المفسدين، ولا يراد بسرد هذه القصص سرداً تاريخياً للأمم والأشخاص فحسب، وإنما يراد منها التذكرة

(1) ينظر: مفرد ألفاظ القرآن: 671.

(2) ينظر: فن القصة، محمد يوسف نجم: 9.

(3) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: 162.

(4) في النقد الأدبي، شوقي ضيف: 221.

(5) سورة يوسف: الآية 3.

والاعتبار. وتبعاً لذلك اهتم الصحابة وكبار التابعين بقصص القرآن الكريم، فاجتهدوا في تفسيره وأخذوا كثيراً مما يتصل بها عمن أسلم من أهل الكتاب، فنشأ القصص الديني. ولقد دلت التجربة على أن من أبلغ المواعظ الدينية نفاذاً إلى القلوب ما عرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص، والتأثر بالأحداث، والانفعال بالمواقف. (1) لقد كانت القصة أسلوباً ناجحاً من أساليب الدعوة إلى الله وقد عني بها فئة من العلماء، شغلوا وظيفة الوعظ وإلقاء القصص، حتى عرفوا في تاريخنا الديني والأدبي بالقصاص.

ويرى محمد غنيمي هلال أن اهتمام الوعاظ بالقصص يرجع إلى أن القصص ليس من الأدب لدى العرب الذي شمل الشعر والخطابة والرسائل (2) والحقيقة أن الوعاظ لم يتعالوا على الأدب وتعاطيه، بل اتخذوا من القصة طريقاً لإيصال أفكارهم وأسلوباً يعتبر من أنجح الأساليب للتقويم والهداية، وأقرب وسيلة لنفوس السامعين واستمالتهم إلى مجالسهم. فقد نال القصاص المكانة الرفيعة بين الناس وظهر على أيديهم نوع من القصص اختص بسرده الزهاد منهم، يدعى القصص الوعظي.

وقد أدرك الحافظ ابن أبي الدنيا الميل الفطري للنفس البشرية تجاه القصة، كما أدرك ما لها من تأثير بليغ على القلوب إذا صيغت بأسلوب عاطفي مثير، لاسيما إذا كانت ذات هدف نبيل، فالنفس الإنسانية تمل من الأسلوب الوعظي التقريبي، خاصة إذا أسرف فيه الواعظون، أو فقدوا التوفيق في أدائه أو عرضه، فالقصص التي نجدها في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا أنواع، فمنها الطويلة ومنها القصيرة، ومنها التي اقتصرت على ذكر موقف القصد منه الإنذار والترهيب، أو إقامة الحجة والإقناع. والقصة لا تتحدد بنمط واحد من الأداء " ولكنها تتلون تلوناً ملحوظاً عليه مقام الفكرة من الطول والقصر، ومن الحوار والقصص، ومن بساطة التعقيد وتركيبه، ومن مفاجأة الحلول أو التبشير بها إلى غير ذلك مما يطرب السامع بمتاع مشتهى لا يمل ". (3)

(1) ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نغره: 544.

(2) ينظر: النقد الأدبي الحديث: 525.

(3) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، عز الدين علي السيد: 442.

والحافظ ابن أبي الدنيا لا يريد من سرد مروياته القصصية حكاية الواقع التاريخي، وإنما يريد الوقوف على مواضع العبرة والتذكر منها، وأهم ما يشترك فيه القصص في مرويات ابن أبي الدنيا مع سائر القصص من عناصر هو الشخص، الحدث، الحوار، الزمان والمكان.

الشخص:

من خلال تتبع مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا القصصية وجدنا أن الشخصية قد تكون محوراً تدور حوله الأحداث، فتأثر فيها وتتأثر بها، ولم يبرز عنصر الشخصية لذاته ولكن بالتأسي أو للتنفير، فالقاريء أو السامع يتأثر بما يقرأ أو يسمع عن الشخصية الخيرة فيميل إليها، ويمتنع وينفر عن الشخصية الشريرة فيبتعد عنها.

وقد تتمثل الشخصية في فرد معين باسمه، وورد هذا النوع من القصص كثيراً في مرويات ابن أبي الدنيا، على نحو ما جاء في قصة حطيظ الزيات مع الحجاج، والتي ذكرت " لم أتي بحطيظ فكلمه الحجاج، أمر به ليعذب قال: فأخرجه صاحب عذابه، فقال: يا حطيظ قد علمت الذي أمرني به فيك الأمير، فماذا أعددت له؟ فقال له حطيظ: ثكلتك أمك، أنت تطيعه في معصية الله، وتبيع آخرتك بدنياء، أنت ممن خسر الدنيا والآخرة، فتباً لك آخر الدهر. قال: ما أعددت لذلك يا حطيظ لما أمرني به فيك؟ فلما أكثر عليه قال: ثكلتك أمك، أعددت لذلك ما وعد الله عليه، تكملة الأجور بغير حساب، أعدت والله لذلك الصبر حتى ينفذ في قضاء الله وقدره، قال: فعذب بأنواع العذاب، فما نبس بكلمة حتى إذا قرب أن تخرج نفسه أخرج فرمي به على مزبلة، فاجتمع عليه الناس، فجعلوا يقولون له: يا حطيظ قل لا إله إلا الله. فجعل يحرك شفثيه ولا يبين الكلام ثم فاضت نفسه". (1)

وعلى نحو ما جاء في قصة ابتلاء أيوب عليه السلام فأورد الحافظ " إن أيوب النبي عليه السلام ترك كلام ملك ناحيته فيما يفعل من الظلم في أهل عمله، وكلمه جماعة من الأنبياء سواه، فترك أيوب كلامه لأنه خافه على خيل له كانت في سلطانه، فأوحى الله إليه: تركت كلامه من أجل خيلك؟ لأطيلن بلائك . فابتلاه الله بما ابتلاه ". (1)

(1) الصبر: 73.

(1) العقوبات: 113.

وقد تتمثل الشخصية في جنس معين، كأصحاب الفيل وبين إسرائيل وأصحاب السبت. فأورد الحافظ ابن أبي الدنيا من ذلك قصة أصحاب الفيل " لما أراد الله عز وجل أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيوراً نشأت من البحر، بلقاً أمثال الخطاطيف، كل طائر منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة، حجرين في رجله وحجر في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما وقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا وقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله رجلاً شديداً فضربت الحجارة فزادها شدة، فأهلكوا جميعاً".⁽²⁾

الحدث:

قد ينصرف الاهتمام في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا القصصية إلى الأحداث دون الشخصيات. فالقصص سرد نثري خيالي، يجسد التغيرات التي تحصل في العلائق البشرية، فالقصة إذاً ترسم سياقاً من الحوادث.⁽³⁾ فهذه الحوادث كلما كانت طريقة العرض فيها مثيرة تاركة آثارها في النفس - لا مجرد أحداث فخمة رائعة - كانت القصة ذات قيمة تعبيرية عالية. يقول سيد قطب " والقصة ليست هي مجرد الحوادث أو الشخصيات إنما هي - قبل ذلك - الأسلوب الفني، أو طريقة العرض التي ترتب الحوادث في مواضعها وتحرك الشخصيات في مجالها، بحيث يشعر القارئ أن هذه حياة حقيقية تجري، وحوادث حقيقية تقع، وشخصيات حقيقية تعيش ".⁽⁴⁾

ولعل من المفيد في هذه القصص المفاجآت الأليمة القاسية المتعاقبة، التي تثيرها الأحداث بقدر ما يثيرها اكتشاف السر في البواعث على تلك الأحداث. من ذلك ما جاء في قصة ثمود قوم صالح " كانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح حين سأله عن ذلك: تصبحون غداً يوم مؤنس - يعني يوم الخميس - وجوهكم مصفرة، وتصبحون يوم العروبة - يعني الجمعة - وجوهكم حمرة، ثم تصبحون يوم شبين - يعني السبت - وجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب يوم أول - يعني يوم الأحد - . فلما قال لهم ذلك قال التسعة

(2) المصدر نفسه: 163.

(3) ينظر: الوجيز في دراسة القصص، ترجمة عبد الجبار المطلبي: 64.

(4) النقد الأدبي أصوله ومناهجه: 75.

الذين عقروا الناقة بعضهم لبعض: هلم حتى نقتل صالح، فإن كان صادقاً عجلنا قتله، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته. فأتوه يوماً لبيئته في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح، فوجدوهم مشدّفين قد رضخوا بالحجارة. فقالوا: لصالح أنت قتلتهم. وهموا به فقامت عشيرته وقالوا: والله لا تصلون إليه، قد وعدكم أن ينزل بكم العذاب، فإن كان صادقاً فلا يزودون ربكم عصياناً عليكم، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون. فانصرفوا عنه ليلتهم تلك، والنفر التسعة الذين رضختهم الملائكة بالحجارة - فيما يزعمون - الذين ذكرهم الله في القرآن (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) وقرأ إلى قوله (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون) فأصبحوا من تلك الليلة التي انصرفوا عن صالح وجوههم مصفرة، فأيقنوا بالعذاب، علموا أن صالحاً صدقهم (1).

ومثله ما جاء في هذه القصة " أن رجلاً أتى أهله وهو سكران، فحملت عليه امرأته ولأمته فحلف بطلاقها أن يتزوج عليها في ليلته. فلما سمعت ذلك منه خرجت إلى الحارس فأخبرته، فقال لها: قد نام الناس، فقالت إن هو لم يتزوج الليلة ذهبت، فأتى الحارس أمه وكانت عجوزاً فأخبرها بيمينه، فقالت افعل ما شئت. فزوجه والدته، وأصبح الرجل ميتاً، فشاركت المرأة في ثمنها فصولحت بثلاثين ألفاً. فالسكر جوامع الشر (2).

و تعتمد القصة في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا على عنصر أساسي، وهو الإثارة والتشويق. في تقديم حبكة متماسكة، وكان لهذا التأثير دور واضح في أغناء الحدث. فالحافظ يختار من أحداث القصص ما كان أقواها تأثيراً في النفس، وأكثرها استجابة للغرض الديني، لما يستخدم فيها من أساليب التذكير والوعظ والحث والأعتبار والتقدير، ومن ذلك قصة جريح المتهم البريء على لسان صبي في المهدي، فهدف القصة يمثل البراءات الإلهية للالتزامات البشرية، ومما جاء في نص هذه القصة أنه " لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة. عيسى ابن مريم، وصاحب جريح. وكان جريح رجلاً عابداً فأخذ صومعة، وكان فيها فأتته أمه فقالت: يا

(1) العقوبات: 90.

(2) ذم السكر: 67.

جريح. فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرف أمه فلما كان الغد أتته فقالت: يا جريح. فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته. فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات. فتذاكر بنوا إسرائيل جريح وعبادته. وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها. فقالت: إن شئت فتنه، لأفتنه لكم. قال: فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأنت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت فلما ولدت قالت: هو من جريح. فأتوه فاستنزله وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم، قالوا: زنت بهذه البغي فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: بالله يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي. فأقبلوا على جريح يقبلونه، ويتمسحون به، وقالوا: بني صومعتك من ذهب. قال: لا أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا". (1)

ففي القصة عقدتان ومفاجأة، عقدة تصور تحير قلب جريح بين إجابة نداء أمه، وبين استمراره في صلاته، والعقدة الثانية تصور دعاء أمه عليه بالسوء. أما المفاجأة فهي خارقة للعادة، تتجسد في نطق الرضيع، بالحديث يعتبر "قستان في قصة يجمعها الموضوع والفكرة، والمقدمة شائقة لأنها حديث عن خوارق قصيرة لا تتجاوز جملة واحدة (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة) وهذا من براعة الافتتاح، وقد طوت قصة وصنعت لها عنواناً على سبيل الإشارة، وإحالة للسامع إلى معهود في القرآن هي قصة عيسى عليه السلام. أما الآخرون فقد بدأت بإحداهما ليظل الخيال مشدوداً طوال القصة إلى الثاني منهما، فيعيش كل الوقت مع الإعجاب الراهن والاشتياق إلى المنتظر". (2)

ومن القصص التي اقتصر في أحداثها على موقف واحد، قصة الرجل المتكبر ونهايته المفجعة، ونصها " بينما رجل يتبختر في برديه قد أعجبه نفسه خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ". (1) فالقصة لم تعرض علينا سوى موقف الرجل المتكبر الذي أعقبته المفاجأة الأليمة القاسية، إذ أنها نهاية جادة ودالة جداً.

الحوار:

(1) مجابوا الدعوة: 25-26.

(2) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: 451.

(1) التواضع والحمول: 213.

للحوار دور هام في قصص الحافظ ابن أبي الدنيا، فهو الذي يبعث الحياة، والحركة في الحدث، والحوار المتبادل بين الشخصيات يجسد الحدث ويبلوره، كما أنه إذا أُدّي في القصة أداءً جيداً، فإنه يزيد في حيويتها، ويبعث الحركة في مشاهدتها. ويعرف الحوار بأنه " تبادل الحديث بين الشخصيات في قصة أو مسرحية " (2) أو هو " حديث بين شخصيتين أو أكثر، تضمنه وحدة في الموضوع الأسلوبية وله طابع عام " (3).

ولم يسلك الحوار في القصة مسلك التبسيط فحسب، بل رسم فيها معالم الشخصيات الإنسانية بالتعبير عن خواطرهم النفسية وآرائهم ومواقفهم، كما أنه لم ينقل كل ما دار بينهم، وإنما يختار ألقطات الموحية، والمواقف الحية، التي تحقق الغرض وتفي بالحاجة، وتكون أكثر دلالة ومغزى. من ذلك ما جاء في هذه القصة أن رجل من أهل العلم ثقة يقال له سعيد أبو عثمان، نظر إلى امرأته فقال " ما رأيت مثل هذا الحسن، وهذه النظارة، وما ذاك إلى من قلة الحزن. فقالت: يا عبد الله، والله إني ليلذبحني الحزن، ما يشركني فيه أحد. قال: وكيف؟! . قالت: ذبح زوجي شاة مضحياً، ولي صبيان يلعبان، فقال أكبرهما للأصغر: أريك كيف صنع أبي بالشاة ؟ فعقله فذبحه، فما شعرنا به إلى متشحطاً، فلما استحلت الصيحة هرب الغلام ناحية الجبل. فرهقه ذئب، فأكله ونحن لا نعلم. وقد أتبعه أبوه يطلبه، فمات عطشاً، فأفردني الدهر. قال: فكيف صبرك؟ فقالت: لو رأيت في الجزع دركاً ما اخترت عليه " (4).

(2) معجم المصطلحات في اللغة والأدب: 87.

(3) من اصطلاحات الأدب الغربي، ناصر الحاني: 39.

(4) الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان: 57.

والحوار وسيلة تعبيرية جوهريّة، وقيمتها الفنيّة ليست في طوله أو قصره، وإنما تكمن في قدرة هذا الحوار أو ذاك على التغلغل في أعماق النفس البشريّة، فقد نشهد مشهداً قصيراً ولكنه يجمع أجزاء وتفاصيل الحدث كله. على نحو ما جاء في قصة الرجل الذي يزور أخاً له في الله، ونصّها " إن رجلاً زار أخاً له في قرية، فأرصد الله عز وجل على مدرجته ملكاً فقال: أين تريد؟ قال : أريد أزور أخاً لي في هذه القرية. قال له: هل عليك نعمة تُربّها؟ قال: لا، إني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، إن الله أحبك كما أحببته".⁽¹⁾ إنها قصة سريعة، فيها مفاجأة وعقدة وحوار جميل، صور حال الرجل المحب لأخيه محبة صادقة خالصة، فالحوار يكون في بعض الأحيان حواراً سريعاً خاطفاً لا نكاد نحس به، لكنه يحقق الغرض ويفي بالمغزى.

ويلاحظ أتم الحوار في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا القصصية قد يختصر أو يوجز حسبما تقتضيه حاجة القصة كما سبق ذكره، وقد يطول بقدر الحاجة الفنيّة للقصة. ومن الحوارات الطويلة المفصلة التي اقتضتها القصة ما جاء في قصة حطيط الزيات مع الحجاج، ونصّها " لما أتى الحجاج بحطيط الزيات قال له: أحروري أنت؟ قال: ما أنا بحروري، ولكني عاهدت الله أن أجاهدك بيدي وبلساني وقلبي. فأما يدي فقد فتها، وأما لساني فهذا تسمع ما يقول، وأما قلبي فالله أعلم بما فيه. قال: فوثب حوشب -صاحب شرطة- فسارّه بشيء، قال يقول له حطيط: لا تسمع منه، فإنه غاش لك، قال فقال له الحجاج: ما تقول في أبي بكر وعمر رحمهما الله؟ فقال: أقول فيهما خيراً، قال: ما تقول في عثمان رحمه الله؟ قال: ما ولدت إذ ذاك. فقال له الحجاج: يا ابن اللخناء، أولدت في زمن أبي بكر وعمر ولم تولد في زمن عثمان؟ فقال له حطيط : يا ابن اللخناء لا تعجل، إني وجدت الناس اجتمعوا على أبي بكر وعمر فقلت بقولهم، واختلفوا في عثمان، فوسعني السكوت، فوثب معد - صاحب عذاب الحجاج - فقال: إني أرى الأمير أن يدفعه إلي، فوالله لأسمعك صياحه! قال: فخذه إليك. قال فحمله فمكث يعذبه ليلته جمعاء، ولا يكلمه حطيط. فلما كان عند الصبح دعا بدهق، واعتمد على ساقه فكسرها واكتبى عليها. قال فقال له حطيط: يا أفسد الناس

والأهمهم، أكتبني على ساقى بعد أن كسرتها؟ والله لا كلمتك! فلما أصبح دخل على الحجاج فقال له الحجاج: ما فعل أسيرك؟ قال: إن رأى الأمير أن يأخذه فقد أفسد عليّ أهل سجنى، يستحيون أن لا يصبروا!.....". وبعد هذا الحوار الطويل المفصل ينتهي الحوار بجواب حطيط لما قاله الشيخ الذي إلى جنب الحجاج " تالله ما رأيت كاليوم رجل أصبر منه. قال حطيط: إن الله يفرغ الصبر على المؤمنين أفرغاً". (1)

ومرويات الحافظ ابن أبي الدنيا القصصية غنية بالحوار، ويوظف الحوار فيها لأغراض كثيرة. فقد يوظف لتصوير الانفعالات واحتدامها وتصاعدها، وقد يوظف لزيادة توضيح الحوادث وتعميق الخطوط المحدودة للأشخاص، وإعطائها الصبغة الواقعية. (2) وتصوير الأحداث في أسلوب الحكاية تصويراً يكشف عن خفايا الصدور، من ذلك ما جاء عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري " إنه خرج إلى عمر فزل عليه، وكانت لعمر ناقة يجلبها، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبناً فأنكره، فقال ويحك من أين هذا البن؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناقة أنفلت عليها ولدها، فشرب لبنها، فحلبت لك ناقة من مال الله. فقال له عمر: ويحك سقيني ناراً، أدع لي علي بن أبي طالب فدعاه فقال: إن هذا عمد إلى ناقة من مال الله فسقاني لبنها، أفتحله لي؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، هو لك حلال ولحمها.....". (3)

إن الحوار يصور تصاعد الانفعال في كلام عمر، وهذا يعبر عن شدة خوفه وورعه عند ما قال (ويحك من أين هذا البن، ويحك سقيني ناراً). ومثله عن خلف البربراني قال: أتيت برجل مجذوم ذاهب اليدين والرجلين أعمى، فجعلته مع المجذومين، فغفلت عنه أياماً ثم ذكرته، فقالت: يا هذا إني غفلت عنك، فقال لي المجذوم: إن لي من لا يغفل عني، قالت: إني أنسيتك. قال: إن لي من لا ينساني. قالت: إني لم أذكرك، قال: إن لي من يذكرني، قد شغلني عن ذكر الله، قالت: ألا أزوجك امرأة تنظفك من هذه الأقدار؟ فبكى ثم قال لي: يا خلف تزوجني !! وأنا ملك الدنيا وعروسها عندي! قالت: ما الذي عنك من ملك الدنيا وأنت ذاهب اليدين والرجلين أعمى، تأكل كما تأكل البهائم؟! قال: رضاي عن الله عز

(1) الصبر: 88-91. ومعنى الدهق: خشبتان يعصر بهما الساق للتعذيب. ومعنى أكتبى: انكب أو انقلب.

(2) ينظر: القصص في الحديث النبوي الشريف، مصطفى عبد اللطيف: 65 مجلة كلية التربية العدد الأول السنة الأولى 1979م.

(3) الورع: 91.

وجل إذ أبلَى جوارحي، وأطلق لساني بذكره، قال: فوقع مني بكل منزلة فما لبث إلا يسيراً حتى مات، فأخرجت له كفناً كان فيه طول، فقطعت منه، فأتيث في منامي، فقيل لي: يا خلف، دخلت على وليّ بكفنٍ طويل؟ قد ردّدنا عليك كفنك، وكفناه عندنا في السندس والإستبرق، قال فنهضت إلى بين الأكفان فإذا الكفن ملقى ⁽¹⁾. فهذه القصة فيها حوار غني بالحياة والإيحاء، إذ أن الحوار صور لنا صورة الرجل المبتلى الصابر تصويراً رائعاً، وتم رسم صورته في نهاية القصة تماماً.

ومن الجدير بالذكر أن لهذا الحوار ميزة أخرى، أنه لم يكن مصدره دائماً هو الإنسان مع الإنسان كما هو المألوف، بل اشتركت فيه عناصر متباينة، فنجد في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا القصصية حواراً بين الإنسان والملائكة، وحواراً بين الله عز وجل والملائكة، وبين الله عز وجل والبحر، وبين الله عز وجل والإنسان، وبين الإنسان مع الشيطان. ومن الأمثلة في ذلك ما جاء في هذه القصص "التقى يونس وجبريل عليهما السلام. فقال يونس يا جبريل: دلني على أعبد أهل الأرض! قال: فأتي على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه، وهو يقول: متعني بهما حيث شئت، وسلبتيهما حيث شئت وأبقيت لي فيك طول الأمل يا بار، ويا وصول. فقال يونس: يا جبريل إني إنما سألتك أن ترينيه صوماً قواماً. قال جبريل: إن هذا كان قبل البلاء قانتاً لله هكذا، وقد أمرت أن أسلبه بصره. قال: فأشار على عينيه، فسالتا، فقال متعني بهما حيث شئت، وسلبتيهما حيث شئت، وأبقيت لي فيك طول الأمل، يا بار، يا وصول. فقال جبريل: هلم تدعو الله وندعوا معك فيرد الله عليك يديك ورجليك وبصرك. فتعود إلى العبادة التي كنت فيها. قال ما أحب ذاك. قال ولم؟ قال: أما إذا كانت محبته في هذا، فمحبته أحب إلي من ذاك. قال يونس: يا جبريل، بالله ما رأيت أحداً أعبد من هذا قط، قال جبريل: يا يونس، هذا طريق لا يوصل إلى الله تبارك وتعالى بشيء أفضل منه ⁽¹⁾. ويتجلى في هذه القصة طول الحوار المفصل بين نبي الله يونس عليه السلام وبين جبريل زعيم الملائكة.

(1) الصبر: 96.

(1) الصبر: 117-118.

ومن القصص التي يتجلى فيها الحوار الرائع الذي يدور بين الله عز وجل وبين الملائكة في شأن هبوط آدم إلى الأرض ما نصه " إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله عز وجل إلى الأرض قالت الملائكة: أي رب (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) قالوا: أي ربنا نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله عز وجل للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان. قالوا: ربنا هاروت وماروت، فاهبطا إلى الأرض....." (2).

ومن القصص التي يتجلى فيها الحوار بين الله عز وجل والبحر ما قصه كعب الأحبار قال " إن الله عز وجل أوحى إلى البحر الغربي حين خلقه قد خلقتك، فأحسننت خلقتك، وأكثرت فيك من الماء، وإني حامل فيك عباداً لي يكبروني، ويسبحوني، ويهللونني، ويقدسونني، فكيف تفعل بهم؟ قال: أغرقهم! قال تعالى: فإني أحملهم على كفي وأجعل بأسك في نواحيك، ثم قال للبحر الشرقي: قد خلقتك فأحسننت خلقتك، وأكثرت فيك الماء، وإني حامل فيك عباداً لي فيكبروني، ويهللونني، ويسبحوني، فكيف أنت فاعل بهم؟ قال: أكبرك معهم، وأهللك معهم، وأحمدك معهم، وأحملهم بين ظهري وبطني. فأعطاه الله عز وجل الحلية والصيد والطيب" (3).

ومن القصص التي يدور الحوار فيها بين الإنسان والشيطان ما دار بين يحيى عليه السلام وإبليس، وقد رأى عليه معاليق من كل شيء، فقال يحيى عليه السلام " يا إبليس، ما هذه المعاليق التي أرى عليك؟ قال: هذه الشهوات التي أصيب بمن ابن آدم قال: وهل لي فيها شيء؟ قال: ربما شبعت فتقلناك عن الصلاة وعن الذكر، فقال: فهل غير ذلك؟ قال: لا. قال: الله عليّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً. قال إبليس: لله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً" (1).

الزمان والمكان:

أما الزمان والمكان، فهما عنصران هامان في القصة، وذلك بإلباسها صورة من الواقع وتشخيصها للأحداث في جو البيئة التي جرت فيها. فالزمن هو المحور الذي يربط الأحداث

(2) العقوبات: 147.

(3) المصدر نفسه: 183-184.

(1) الرقة والبكاء: 120-121.

في تسلسل وتتابع يؤدي إلى نتائج معينة، إذ أن عامل الزمن في مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا القصصية لا يقف عند صورة واحدة متجمدة، إذ أن بعض القصص يتناول الزمن في المستقبل، كما في قصص الفتن وأشرار الساعة والحساب، والجنة والنار. فزمن المستقبل " هو الشيء المناسب لتصور الإنسان ليوم القيامة والحياة الأخرى". (2) ومن أمثلة هذا اللون من الزمن ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا عن ابن زغب الأيادي قال " نزل أبو حوالة صاحب رسول الله ﷺ عليّ فسمعتة يحدث عن رسول الله ﷺ قال: بعثنا حول المدينة لنغنم، فقدمنا ولم نغنم شيئاً، فلما رأى رسول الله ﷺ الذي بنا من الجهد قال: أَللّهم لا تكلهم إليّ، فأضعف، ولا تكلهم إلى الناس فيهنونوا عليهم، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا، ولكن توكل بأرزاقهم. ثم قال: لتقتسمن كنوز فارس والروم، وليكونن لأحدكم من المال كذا وكذا، حتى إذا أخذ أحدكم بعض مائة دينار فيتسخطها، ثم وضع يده على رأسي ثم قال: يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والقتل، ولل ساعة أقرب للناس من يدي هذه من رأسك". (3)

وقد يتناول بعض القصص الزمن الماضي على أنه حدث مضى وانقضى، على نحو ما جاء في هذه القصة " عبد عابد ربه عز وجل سبعين سنة، قال فمر به جبريل عليه السلام يوماً فقال: إلى أين؟ قال: إلى مدينة كذا وكذا، أقلب أسفلها أعلاها! قال: ولم يا جبريل؟ قال: لأنهم يعصون الله عز وجل من عشرين سنة، قال: وإن الله عز وجل ليمهل للعباد عشرين سنة؟ قال: نعم. فمضى جبريل عليه السلام.... القصة". (1)

وبعضها يتناول الزمن الحاضر، أي أن مشاهد القصة وقعت قبل لحظات من حديث المتكلم عنها، مثال ذلك ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ " رأيتني دخلت الجنة، فرأيت قصرأً أبيض بفنائها جارية، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا لعمر بن الخطاب. فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك، فقال عمر: بأبي أنت وأمي

(2) القصص في الحديث النبوي الشريف: 59.

(3) العقوبات: 175.

(1) العقوبات: 167-168.

يا رسول الله، عليك أغار". (2) ومثله عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال " دخلت الجنة، فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي في مجرى الماء، فإذا مسك أذفر، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله عز وجل". (3)

والقصص في مرويات الحافظ ابن أبي الدنيا لا يعينها ذكر المكان، إلا ما جعلت منه مسرحاً للأحداث، كأماكن أقوام الأنبياء التي هلكوا فيها، ومثال ذلك ما رواه الحافظ ابن أبي الدنيا "كان قوم عاد من أهل اليمن، كانوا بأحقاف، والأحقاف الرمال، فأتاهم فدعاهم وذكرهم بما قص الله عليك في القرآن، فكذبوه وكفروا وسألوا أن يأتيهم بالعذاب، فقال لهم: إنما العلم عند الله. وأصابهم حين كفروا فحط من المطر فجهدوا جهداً شديداً، فدعا عليهم هود عليه السلام فبعث الله عليهم الريح العقيم التي لا تلقح، فلما نظروا إليها (قالوا هذا عارض ممطرنا) فلما دنت منهم نظروا إلى الرحال والإبل تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فلما رأوها تبادروا لبيوت، فما دخلوا البيوت دخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت.....". (4)

(2) صفة الجنة: 61. الحديث رواه البخاري: 5/ 2003.

(3) المصدر نفسه: 35. الحديث أورده الحاكم في المستدرک: 1/ 152. ويؤيد ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أيضاً قال " بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاء. ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ آتفاً سورة، فقرأ إنا أعطيناك الكوثر، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر وعدني به ربي عز وجل... الحديث". رواه مسلم: 300/1.

(4) العقوبات: 85-86.

﴿ الدراسة الفنية لأدب الرقائق في مرويّات ابن أبي الدنيا ﴾

وقد اتخذت القصة في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا أشكال عدة، نستطيع أن نقسمها حسب مصنفاته إلى أنواع:

1. القصص التاريخي: وأكثر قصص مرويّاته تاريخي، كقصص الأنبياء والصحابة والتابعين وغيرهم. ⁽¹⁾ وقصص الأنبياء فيها شيء مما جاء في القرآن الكريم، وقد تطعم بعضها بالروايات الإسرائيلية والخيال العقلي.

2. القصص الواقعي الاجتماعي: لقد اتخذت مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا القصصية طابع العلاقات الاجتماعية التي تربط الإنسان بالآخرين، فالحافظ ابن أبي الدنيا من خلال مرويّاته حاول أن يرسخ مبادئ الإصلاح الاجتماعي في المجتمع الإسلامي الذي أخذ يفقد تلك المبادئ والقيم النبيلة. ⁽²⁾

3. القصص الخيالي: ويتعلق هذا النوع القصصي لمرويّات ابن أبي الدنيا بأحوال الآخرة ومسائل الغيب، كالجنة والنار والحساب والعقاب وغيرها. ⁽³⁾

4. القصص الشعبي: ويقترّب هذا النوع القصصي في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا من مستوى الخيال الشعبي. ⁽⁴⁾

وتجدر الإشارة إلى أن القصص في مرويّات الحافظ ابن أبي الدنيا تمتاز بعرض أحداث القصة بإيجاز وفواصل قصيرة، كما تقدم في القصص السابقة، إلا أنها تطول في بعض الأحيان مما تنطوي عليه من معاني وأفكار، يقول طه حسين " إن الإطالة هي من خصائص النثر وميزاته، وإن الشعراء ليسوا في حاجة إلى الإطناب، لأن الشعر لا يحتمل الإطالة في المعاني الغنائية مثلما يحتملها القصص ". ⁽⁵⁾

(1) ينظر: كتاب العقوبات وكتاب مجابو الدعوة وكتاب الاعتبار أعقاب السرور والأحزان.

(2) ينظر: كتاب الإخوان وكتاب قضاء الحوائج وكتاب العيال.

(3) ينظر: كتاب صفة الجنة وكتاب صفة النار وكتاب العقوبات.

(4) ينظر: كتاب من عاش بعد الموت.

(5) من حديث الشعر والنثر، طه حسين: 138-139.

الطائفة

بعد هذه الجولة الممتعة في مصنفات الحافظ ابن أبي الدنيا ورقائقه، أختتم هذه الدراسة بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها:

1. أثبتت الدراسة أن مصطلح الرقائق مصطلح عربي إسلامي معناه: الرقة واللين، وهي ضد الشدة والغلظة، وأنه تطور وأخذ مسلكاً خاصاً به في القرن الثالث الهجري، حتى عرف به فئة من العلماء من أبرزهم ابن أبي الدنيا.
 2. يعد الحافظ ابن أبي الدنيا من أوائل العلماء الذين قعدوا الأسس لعلم الرقائق والزهديات. ومصنفاته تعتبر من المصادر الرئيسة لكل من له عناية في الرقائق والزهد.
 3. إن مصنفات الحافظ ابن أبي الدنيا تمتاز بالوحدة الموضوعية والتخصص الدقيق مع جودة الترتيب و التبويب، كما تميزت مصنفاته بالشمولية والاستيعاب في الموضوع الواحد، مع حسن العرض ودقة التصنيف والاختيار.
 4. مصادر الحافظ ابن أبي الدنيا في مصنفاته متنوعة، فهو يجمع مادة مصنفاته من مصادر شتى.
 5. تضمنت مصنفات الحافظ ابن أبي الدنيا ألواناً فنية كثيرة مما شكل ظاهرة بارزة فيها.
 6. اهتمت مصنفاته بوسائل التأثير النفسي، وقد اعتمدها الحافظ ابن أبي الدنيا في مصنفاته كافة، ومن أهم هذه الوسائل: القصة والوصف والصور.
- وبعد فهذا جهدي في هذه الدراسة، فإن أحسنت فذلك فضل من الله، وإن قصرت فحسبي أنني بذلت جهدي، وأرجو أن لا أحرم الأجر والثواب، وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

- القرآن الكريم.
- ابن الفارض سلطان العاشقين، حمد مصطفى حلمي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1382هـ / 1963م .
- إتحاف السادة المتقين، محمد بن مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي، طبع في مصر.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، عالم الكتب، بيروت.
- الإخلاص والنية، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق أياد خال الطباع، دار البشائر، دمشق.
- الإخوان، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الأذكار، أبو زكريا النووي، مكتبة النقاء، بغداد.
- الأسلوب، أحمد الشايب، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية، ط8، 1408هـ/1988م.
- الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف،
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1979م.
- الأنساب، أبو سعد محمد بن عبد الكريم السمعاني.
- البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيد، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس، دمشق، 1964م.
- البيان والتبين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1405هـ.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1965م.
- تأريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، مطبعة السعادة بمصر، 1349هـ / 1931م

- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، حققه وراجع أصوله عبد الوهاب عبد اللطيف، ط2، 1385هـ.
- تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن الحسن الذهبي، تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، حيدر آباد، الهند، 1374هـ.
- التذكرة في أهوال الآخرة، أبو عبد الله القرطبي،
- التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي،
- التعريفات، الشريف الجرجاني، دار الفكر، بيروت، 1419هـ / 1998م.
- تفسير القرطبي، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط3، 1421هـ / 2000م.
- تقريب الإرشاد، أبو زكريا النووي، مكتبة الحلبي، دمشق.
- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبع حيدر آباد، الدكن، الهند، 1325هـ.
- تهذيب الكمال، أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزني، تحقيق د. بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م.
- التواضع والخمول، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق لطفي محمد الصغير، دار الاعتصام.
- التوكل على الله، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق ياسين محمد السواس ويوسف علي بديوي، دار ابن كثير، دمشق، 1415هـ / 1994م.
- التيار الإسلامي في شعر العصر الإسلامي الأول، مجاهد مصطفى بهجت، إحياء التراث الإسلامي.
- تيسير مصطلح الحديث، د. محمود طحان، دار التراث، الكويت، ط6، 1404هـ / 1984م.
- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د. عز الدين علي السيد، 1393هـ / 1973م.
- الحلم، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن القاهرة.
- خريدة القصر، القسم العراقي.

- الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة دار الفكر العربي.
- الخطابة في صدر الإسلام العصر الإسلامي، محمد طاهر درويش، دار المعارف، مصر، 1967م.
- الخيال في مذهب محي الدين بن عربي، محمود قاسم، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1969م.
- الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند.
- دفاع عن فن القول، عبد الكريم غلاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م.
- ذم المسكر، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق ياسين محمد السواس، دار البشائر، دمشق، 1412هـ/1992م.
- الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، غانم جواد رضا، مطبعة أسعد، بغداد.
- الرقة والبكاء، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق مسعد عبد الحميد محمد السعدني، مكتبة القرآن، القاهرة.
- زهرة الأدب
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق جماعة من الفضلاء، تحت إشراف الشيخ الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1402هـ/1982م.
- سيرة ابن هشام،
- سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نفرة، الشركة التونسية للتوزيع.
- صبح الأعشى،
- الصبر والثواب عليه، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق ومحمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1418هـ/1997م.
- الصحاح في اللغة والأدب، الجوهري، اعداد وتصنيف نديم عشلي واسامة عشلي، دار الحضارة العربية، بيروت.

- صفة الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق طارق الطنطاوي، مكتبة القرآن، القاهرة.
- صفة النار، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1417هـ/1997م.
- الصمت وآداب اللسان، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ/1986م.
- طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى.
- طبقات الشعراء،
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي،
- العقوبات، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1416هـ/1996م.
- العمدة في محاسن الشعر ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972م.
- العيال، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم، الدمام، 1410هـ/1990م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار السلام، الرياض، 1421هـ/2000م.
- فتح المغيث شرح ألفية الحديث، السخاوي، المدينة المنورة،
- الفرع بعد الشدة، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق ياسين محمد السواس، دار اليشائر، دمشق، 1412هـ/1992م.
- فن الخطابة، د. أحمد محمد الحوفي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1963م.
- فن القصة، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت ط5، 1966م.
- الفهرست، ابن النديم، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

- فوات الوفيات، ابن شاکر الکتبی، تحقیق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1967م.
- في النقد الأدبي، شوقي ضيف، ط7، دار المعارف، مصر.
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، دار الفكر، بيروت، 1403هـ/1983م.
- قصر الأمل، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم بيروت، 1417هـ/1997م.
- قضاء الحوائج، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة.
- الكامل، ابن الأثير، مصر، 1303هـ.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبي البقاء الكفوي، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري/ مؤسسة الرسالة، ط2، 1419هـ/1998م.
- لسان العرب، أبو الفضل بن منظور، دار صادر، بيروت، 1375هـ/1956م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، مطبعة النهضة، مصر، 1379هـ/1959م.
- المختصرين، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم بيروت، 1417هـ/1997م.
- مجابو الدعوة، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق فريال علوان، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- مروج الذهب، المسعودي.
- مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، بيروت.
- المعجم الأدبي، جبر عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر بيروت، 1376هـ/1957م.
- معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، 1974م.

- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، 1979م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في القاهرة.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، المطبعة الأدبية، القاهرة، 1317هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني.
- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، المكتبة التجارية القاهرة.
- مكارم الأخلاق، أبو بكر بن أبي الدنيا،
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي الجوزي، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند.
- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، مصر، 1961م.
- من عاش بعد الموت، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق أحمد علي جار الله، دار ألباز، مكة المكرمة.
- من مصطلحات النقد الغربي، د. ناصر الحاني، دار المعارف، القاهرة.
- النشر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله خضر، سلسلة دراسات (244) دار الحرية بغداد، 1980م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين بن تغري بردي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1978م.
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق.
- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار النهضة، مصر، 1973م.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري، تحقيق أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- نيكلسون.
- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي.
- الوجيز في دراسة القصص، لين أولتييدررد (بالاشتراك)، ترجمة عبد الجبار المطلبي، سلسلة الموسوعة الصغيرة (137) دار الحرية بغداد.
- الوصف في الشعر العربي، عبد العظيم قناوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، 1949م.
- اليقين، أبو بكر بن أبي الدنيا، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت.

ثانياً: الرسائل الجامعية:

- أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام، محمد سعيد حسين مرعي الجبوري، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بغداد، 1410هـ/1989م.
- شعر الزهد والتصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رافع سعد عبد الحليم، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة بغداد، 1975م.
- النشر الصوفي في الأدب العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، فائز طه عمر، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة بغداد، 1410هـ/1990م.

ثالثاً: الدوريات:

- مجلة كلية التربية، البصرة، السنة الأولى، 1979م، العدد الأول، ص 65.
القصص في الحديث النبوي الشريف، د. مصطفى عبد اللطيف جياووك.
- مجلة المجمع العلمي، دمشق، السنة 1974م، المجلد 49، ص 579. معجم
المصنفات أبن أبي الدنيا، د. صلاح الدين المنجد.